

رحلة الى القرية

كاميلو خوسيه ثيلا



ترجمة وتقديم : د . محمد ابو العطا



رواية

رحلة إلى القرية

تأليف

كاميلو خوسيه ثيلا

ترجمة وتقديم

د. محمد أبو العطا

الطبعة الأولى

١٩٩٣

الإشراف الفني : حلمى التونى

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب كاميلو خوسيه ثيلا
« رحلة إلى القرية »

**Camilo Jose Cela : " Viaje a la Alcarria", Madrid,
Espasa-Calpe (Coleccion Austral),1976.**

إهداء

عزيزي دون غريغوريو مارانيون *

إنى مدين لك بالكثير . فثمة العديد من الأشياء التي لا يمكن أن تفسر بدون صداقتك الكريمة والمعلمة . وأنا لا أحاول أن أرد الدين بهذه الصفحات التي أقدمها لك اليوم . فليس من بين عيوبى - على حد اعتقادي - عدم القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها ، وخاصة عندما تكون - كما هى فى هذه الحالة - واضحة كضوء المصباح - أرسل اليك هذا الكتاب بفرض آخر . فحينما لا ترد الديون لاستحالة سدادها فإنه من الأفضل عدم الحديث عنها ومواصلة اللعب . وأنا أهديك كتابي (رحلة الى القرية) لأننى أعلم أنك هاو لكتب الرحلات .

القرية إقليم جميل وإن لم يستهو الناس الذهاب إليه . لقد تجولت فيه وأعجبتنى . ففيما عدا العسل الأبيض ^(١) الذى يشتريه كله محتكروه من التجار ، فإن به كل شيء : القمح والبطاطس والنعناع وأشجار الزيتون والطماطم والقنص . ولقد بدا لى أناسه طبيين . فهم ينطقون بإسبانية رائعة وبلكنة طيبة . وعلى الرغم من أنهم ما عرفوا غرض رحلتى إلا أنهم أكرمونى وأطعمونى بمودة دائمة رغم ندرة الطعام أحيانا . ففى إحدى القرى جعلوا منى ضيف شرف البلدية ودفعوا لى إيجار المسكن ، وفى قرية أخرى - فى المقابل - حبسونى بناء على أمر من العمدة الذى كان أمهق سكيراً متلعثماً فى كلامه ، فمكثت يوماً بليته حبيس بدروم كرية الرائحة ، أتقذى على شوربة ثوم وبعض النبيذ الرديء . وكان فى

* غريغوريو مارانيون (١٨٨٧ - ١٩٦٠) : طبيب وأديب إسباني وشخصية إسبانية

بارزة على مدى نصف قرن .

(١) يشتهر هذا الإقليم فى جميع أنحاء إسبانيا بجودة إنتاجه من العسل الأبيض -

المترجم .

الزنزانة رجل من الخجر فى مثل سننى تقريبا ، كان قد سرق بغلة ، ولقد اعتقد - ولا أحد يدرى مالىسب - أنى ممثل متجول ، وكان يقضى طوال الوقت فى سؤالى : إذا كنت فنانا فلماذا لا تريد أن تفصح عن ذلك ؟ ولم يكن للرجل أن يتصور أن الأمر لم يكن على ذلك النحو ، وأن كل ما هنالك أنى لم أكن فنانا . ولا أتحدث عن هذه القرية فى الكتاب لأنه ليس بوسعى أن أقول أشياء بهيجة كثيرة عنها .

عندما أطلقوا سراخى واصلت الترحال . وبعد ذلك ، عندما نال منى النُصَب كل منال عدت أدرجى إلى مدريد وكنت أسجل دائما فى دفتر كل ما كنت أراه ، وتلك الملاحظات هى أساس هذا الكتاب . وفى كل الرحلة لم أر أى شىء غريب ، أو فظيع - كجريمة مثلا أوولادة ثلاثة توأم ، أو شخص ركبه عفريت أو أى شىء من هذا القبيل - والآن أسعد لذلك لأنى كنت قد عقدت العزم على أن أحكى كل ما أراه (لأن هذا الكتاب ليس رواية وإنما هو على الأصح عمل جغرافى) ولو كنت عند كتابته أغرقت فى تصوير الفظائع لقالوا إننى أبالغ وما كان لأحد أن يصدقنى . ففى الرواية يصلح كل شىء على أن يروى بمنطق سليم ، ولكن فى الجغرافيا بالطبع لا يصلح أى شىء ، فيجب دائما قول الحق لأنها مسألة علمية .

وبعد ، يا عزيزى دون غريغوريو : هذا كل ما كنت أريد أن أقوله . وهو قليل ، لكن ، على أية حال ، هو أفضل من لا شىء . أرسل اليك أيضا زهرة قطفتها على حافة الطريق وحفظتها طيلة هذا الوقت فى كتاب وهى الآن مصبرة . أعتقد أنها جميلة .

أسألك أن تتقبل هذه الهدية التى يقدمها لك ، بخير نية فى العالم ،
المخلص :

كاميلو خوسيه ثيلا

مقدمة

— ١ —

قيل عن كاميلو خوسيه ثيلا - الإسباني الجليقي المولود في عام ١٩١٦ - إنه أعظم روائي في فترة ما بعد الحرب الأهلية وحتى الآن ، وإنه كاديب «يكتب» بينما الغالبية من الروائيين «يحررون» . ثيلا يبحث في أسرار اللغة ويعتبر الكتابة مغامرة للوقوف على كنوز الإسبانية ، وهو كما يعرف نفسه «منقّب عن الكلمات» .

وثيلا - الحائز على جائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٩ - هو الذي ألف رواية «عائلة باسكوال دوارتي» الرواية التي لها مذاق الأماكن التي مرت بها الحرب الأهلية الإسبانية ، والتي تعكس الحقد الدفين حبيس النفس الإسبانية ، حقد من ناضل من أجل أهدافه السامية ثم هزمه المناخ المحيط به .

وثيلا الآن ، بعد مرور خمسين عاما على ظهور «باسكوال» ، يتململ قليلا في جلسته حين يلقيه البعض بـ «كاتب عائلة باسكوال دوارتي» ، فأى قارئ لبقية أعماله العظيمة يتفهم في الحال السبب . إن كاميلو خوسيه ثيلا أعظم مجدد روائي في اللغة الإسبانية في القرن العشرين ، وما من رواية صدرت له بعد «باسكوال ...» إلا وقد تأسست على بنية تقنية جديدة .

ففي عام ١٩٤٤ نشر روايته «عنبر الراحة» التي قامت على تقنية الزمن البطيء البروستي (Marcel proust) وقد صدرت بعد «باسكوال» لتحمل شيئا من السكينة إلى النفوس المعذبة التي عمرت روايته الأولى ، ولكنها سكينة مأساوية ، حيث تدور أحداث «عنبر الراحة» في مصح لمرضى الصدر ، وينتهي كل فصل تقريبا بوفاة أحد المرضى .

وفي ١٩٤٨ صدر له كتاب «رحلة إلى القرية» وهو تجربة فريدة

ومحكمة أيضاً صيغت كلها فى زمن الفعل المضارع ، وستعود إلى هذا العمل مرة أخرى كى نتناوله بشىء من التفصيل .

ثم صدرت له فى عام ١٩٥١ رواية « الخلية » التى تعد تواصل مع أفضل ما فى المدرسة الـ " Behaviorist " الأمريكية ، كأعمال جون دوس پاسوس (John Dos Passos) وشيروود أندرسون (Sherwood Anderson) وهذه الرواية رفضت الرقابة فى إسبانيا نشرها ، فصدرت فى بوينوس إيرس .

وفى عام ١٩٥٣ صدرت له رواية « مسز كالديويل تتحدث إلى ابنها » لكى تدهن فى إسبانيا وجهة نظر روائية جديدة ، وهى وجهة النظر فى ضمير المخاطب ، وهى أيضاً وجهة نظر سبقت بكثير ما أصبح فيما بعد إكتشافاً عظيماً على يد حركة "Le Nouveau Roman" الفرنسية . وهى مسز كالديويل . . . رواية رسائلية شاعرية مليئة بالتداعيات السيريالية والشروقات غير المقيدة بمعايير ، وتتحدث عن علاقة أم بابنها الذى يموت فى بحر إيجا ، فتستمر فى كتابة رسائل له حتى وفاته .

وتمر الأعوام وإنتاج ثيلا لا ينقطع ، فینشر فى عام ١٩٦٩ رائعة أخرى من روائعه وهى « سان كاميلو ١٩٣٦ » التى تكرر فى إسبانيا تقنية « المناجاة الذاتية » طبقاً للتقليد الذى أسس له جيمس جويس (J . Joyce)

ويتجدد إنتاج ثيلا الروائى ويتطور فى اطراد وفى الاتجاه الذى يبعث فى قرائه الدهشة دائماً لروعة مفاجاته الجديدة . وفى عام ١٩٨٣ يبدأ حلقة جديدة فى سلسلة إبداعاته المجددة برواية « أغنية لقتيلين » وهى فى موضوعها تعتبر عودة إلى الجذور ، إلى « چليقية » (Galicia) الوطن الأصل ، وإلى السرد الأشبه بالسرد الشعبى قديماً وحديثاً للأساطير وللحوادث الكبرى ،والذى تتحقق فيه المعادلة الصعبة فى اللغة الروائية المتمثلة فى الجمع بين أسلوب ومفردات العامة وأصالة وتراث اللغة الأدبية

ولغة حديثة مستوعبة لآخر وأحدث الظواهر اللغوية .

فى هذه الرواية ، يأخذ تقسيم العمل إلى فصول أو أجزاء طريقه إلى التلاشى . ويلغى التتابع الطردى للزمن الروائى . وهذا الزمن لا يبدأ أو ينتهى عند نقطة معينة أو عند نفس النقطة ، بل هو زمن بلا بداية أو نهاية ، وهو زمن أسطورى يرتبط فى الأذهان بالحدث المسرود القائم بذاته .

وجزء كبير من أحداث الرواية يمكن إعادة سرده على صفحات نفس الرواية فى اختصار محسوب بالطبع (بنفس الأسلوب أو التفسير الذى ينقله الناس أو تتداوله العامة وهو التفسير الأخلد أيضاً) وكأنما جميع الأحداث وقعت فى لازمن (Timelessness) أو أنها تتوازى زمنياً فى الذاكرة الجمعية ، وهى رواية صنفها النقاد وثيلا نفسه على أنها رواية دائرية .

ثم تأتى آخر رواياته حتى الآن ، « المسيح ضد أريزونا » لتكرس على نحو أعمق تقنية الرواية الدائرية ولتتشابك فيها التقنيات الروائية الحديثة بشكل عبقرى وطريف . فالراوى الذى يحكى الأحداث على مدى ٢٣٨ صفحة يتوقف فى منتصف الرواية عن السرد ليترك مكانه لشخص آخر يستأنف ابتهالات الأول ، ثم نكتشف أن كليهما ليسا سوى شخص واحد غير اسمه ولقبه وجزءاً من حياته .

والرواية فى مجملها هى مناجاة ذاتية لشخص ليس هو البطل ، وفى هذا المجلد ليس ثمة بطل بالمعنى الشائع (بين ما يقرب من ٤٦٠ شخصاً هم أشخاص هذه الرواية) . وفى هذا المجلد تختفى الفصول وجميع علامات الترقيم فيما عدا الفاصلة ، وليس به نقطة واحدة سوى نقطة النهاية . فالسبيل الروائى كتلة واحدة لا يتوقف حتى نهاية المجلد .

وكاميلو خوسيه ثيلا كاتب واقعي ، ومصور للظواهر الاجتماعية والسلوك ، لا للسرائر ، فهو يتبعد عن التحليل النفسي لأبطاله ، ويكتفى بالرصد الدقيق لسلوك البطل والمناخ الذي يتحرك فيه ، وهو ما يعاب عليه دائما ، ويجمع بين الشعرية الروائية والمحاكاة الواقعية الجديدة . وتتميز لغته بالغلظة والصفاء المميزين للغة الإسبانية ، ولقد بلغت لغته درجة من الكمال لم يبلغها كاتب إسباني معاصر .

رحلة إلى القرية

يمكن تصنيف الكتاب الذى نقدم له بهذه السطور ضمن أدب الرحلات ولكن فى قالب روائى . فمن يقرأ الفصلين الأول والثانى (اللذين لهما بنية روائية خالصة) يكتشف نية الكاتب منذ البداية والتي تجعل من الرحالة بطلا يتلاحم مع الشخصيات التي يلتقى بها تلاحما حميما . بيد أنه ليس البطل الأوحده ، ليس البطل الأساسى .

وترتبط روائية هذا المجلد بنية القيام بالرحلة أولا ، ثم بضمير الغائب الذى تحكى فيه وقائع الرحلة . فالرحالة لديه حنين ويحدوه الأمل فى معرفة الناس عن قرب : « ويسير الرحالة ممثيا نفسه بخير الآمال : فهو يفكر فى لمس قلوب رجال الطريق والنظر إلى أرواح المسافرين والإطلاع على نظراتهم كمن يطلن من حافة بئر » وهذا ما ستراه عندما يلتقى بشخص رسمت ملامحهم بريشة روائية قديرة ، خاصة الحوارات التي يجريها معهم .

أما الأمر الأخر وهو استخدام ضمير الغائب فقد أراد الكاتب به أن يبتعد قدر الإمكان عن أية مباشرة قد تفسد على القارئ متعة تخيل أبطال هذا المجلد وهم يعيشون فى عالم مجاور لعالم الواقع .

وفى هذا بالضبط تكمن روعة هذا العمل . فالرحلة التي قام بها المؤلف رحلة حقيقية التقى فيها بالشخصيات التي يتحدث عنها ولكنه أتاح لنفسه أن يرسم ملامحها الأخيرة بريشته هو . فثيلا ينتقى من الواقع ما يود ، ويدع مالا يريد ، وهو نفسه يصرح بذلك فى مقدمة الكتاب .

وهذا الكتاب الذى قرأته الأجيال فى إسبانيا منذ صدره وحتى الآن هو محاولة للمصالحة بين الإسبانيين ، ويتضح هذا بجلاء فى الفصل الثانى من الكتاب . والإسبانياتان نقصد بهما الفريقين اللذين تطاحنا مأساويًا

خلال الحرب الأهلية ، فانتصر أحدهما انتصاراً مخزياً ، وهزم الآخر ،
قبات ممتهدنا فى بلده وبين أخوته .

وفى الفصل الثانى من « رحلة إلى القرية » ثمة إشارة إلى الشاعر
الإسبانى الكبير أنطونيو ما تشادو وهو من أنصار إسبانيا التى خسرت
الحرب ومات بعيداً عن وطنه ، وفى الفصل الثانى أيضاً يعكس ثيلا عاطفته
الجياشة وحبه العميق لإسبانيا وللإسبانية والفقراء والمهزومين من بنى
وطنه (أناس أعفاه يدخرون شهوراً بأكملها ليشتروا سجادة صغيرة إلى
جانب الفراش - بنات كباريه لاس ياماس - الطفل الذى ينقب فى كومة
قمامة .. الخ ...)

وينعكس حب الكاتب لإسبانيا وإسبان من خلال الوصف الذى يحتل
الجزء الأكبر من الكتاب . وصف الأماكن والمناظر بأسلوب بسيط ، حذر ،
يحدوه أمل واهن وتتخلله إيماءات تعبيرية بديعة . يليه وصفه لأشخاص
معدمين ، بقايا أحلام ضائعة ، بعضهم أعاقته الطبيعة عن التطور
والبعض أدى تغير المجتمع وتتابع الأحداث إلى أن أصبحوا بلا فائدة . ثم
وصفه للأطفال الذى لا يربطهم بطبقة ما (فهذا ليس وارداً فى حالة هذا
العمل) وإنما كشخص لها هويتها الخاصة وفرانيتها .

ولا شك أن تناول هذه الشخصيات على وجه الخصوص إنما هو تعبير
عن إرادة الخلاص عند ثيلا ، ومن ثم فـ « رحلة إلى القرية » هى عمل
أخلاقي وتعبير عن حب الكاتب لبلده ، وثيقة شاعرية وإخبارية فى ذات
الوقت .

وهو عمل يعرض أيضاً للجدلية بين الريف والحضر ، ويعبر عن إرادة
مبكرة للاهتمام بالريف وباهله البسطاء مقابل سيطرة المدن عليه من
ناحية ، وإعمالها لإصلاحه من ناحية أخرى .

والرحالة عندما يدخل القرى ، ينحصر اهتمامه الأول فى البحث عن المسكن والمأكل (وهو اهتمام برجوازي يشويه ترف واضح لاينكره الكاتب بل ينطلق منه ليشرح أو يفسر الظواهر الأخرى التى تقابله خلال هذا البحث ، وليعكس من خلاله فهمه العميق لطبيعة أبناء بلده) ثم لا يلبث أن يلتقى بنماذج بشرية من الرجال البسطاء ، يعد العرض لهم متعة أدبية كبيرة ، بل ويعثر بكنوز حقيقية أثرية كانت أم تاريخية أم لغوية أم إنسانية وأفكار ومسميات فى طريقها للاندثار فيقوم بتسجيلها .

والعجيب فى الأمر أنه ما كان على ثيلا إلا أن يصل إلى ناصية شارعه لكى تتفتح أمامه أبواب عالم كان من قبل يجهله ، ونقصد بذلك أن الرحالة (ثيلا) لم يخرج من إسبانيا ولم يذهب بعيداً جداً عن مدريد كى يتحقق له ذلك الكم الكبير من الاكتشافات ،وكى يحظى بلقاء شخص خالدين كالذين التقى بهم بل وربما يغبطه على اكتشافهم الكثير من الأدباء والروائيين .

إن ثيلا لا يخفى أن صنعته ومهنته ككاتب قد منحته بعض الترف، وهو كذواقة متميز للأدب - والطعام والشراب أيضاً - لايفوته أيضاً أن يتذوق متعة لقاء رجل متسول له هيئة فرسان القرون الوسطى ، أو الاستماع إلى بائع ثرثار جميل التصنع فى حديثه أو تناول طعامه على جانب الطريق مع رجل بائس يسمى « الغائط » .

ووصف ثيلا للطبيعة وللأشخاص العاديين من بسطاء الناس وما يضمه من فلكلور محلى ومن بهجة أهل المنطقة يضيف مذاقا عتيقا على مادته يذكر بالرحالة القدامى وصيغة من الأزلية على الأماكن التى يزورها والناس الذين يلتقى بهم . فالناس فى كتابه يقيسون الزمن بما قبل وما بعد اختراع الطائرات ، وبعضهم يزعم أنه التقى بالجنرال (Wayler) ويلر القائد الإسباني فى حرب كوبا فى القرن الماضى ، وكل الملصقات والإعلانات ترجع إلى أوائل القرن على أكثر تقدير . هؤلاء الناس يعيشون

فى دعة وسكينة ولىسوا بحاجة إلى العودة إلى الحرب الأهلية (التى لم يكن قد مضى على انتهائها سوى عدة سنوات) لتحديد مسيرة تاريخهم. تلك الصبغة الأزلية التى تلون كل شىء يمر به لا تضطره (فليس ثمة حاجة إلى ذلك) للدخول فى محاورات سياسية أو فى سفسطات اجتماعية أو جدليات ايدولوجية لكى يشكل هذه التحفة الرائعة، فالبسطة والتواضع والعفوية هى أساس كل شىء.

وثمة التزام من جانب الكاتب خاص بحرفيات مهنة الكتابة ويتعلق بتحديد المعالم الجغرافية التى يمر بها تحديدا تاريخيا مقدما « النص الرسمى » أولا ثم التفسير التاريخى أو الشعبى والذى غالبا ما يتناقض مع التفسير الحكومى . ويلتزم أيضا بدقة الوصف (وإن أعطى لنفسه حرية اختيار ما يورده فى كتابه) . إن المجلد وثيقة تاريخية من الطراز الأول ، فالإشارة إلى الحرف وأحوال المعيشة والأماكن والمعالم دقيقة وأمينة إلى أبعد حد .

ومما يميز هذا العمل أيضا هو أنه صيغ فى زمن المضارع ، فلا نكاد نجد فعلا ماضيا إلا نادرا ، ويتم ذلك عن براعة ومقدرة كاتبه ، وكذا عن تأصل نزعتة التجديدية فى الكتابة ، فهو يرى أن العمل الأدبى يكتب من جديد فى كل مرة يقرأ فيها ، وأن أحداثه تولد مع كل قراءة له (من حيث إنها إن لم تقرأ فكانها لم تحدث) لذا يرى فى صيغة المضارع أنسب الصيغ للكتابة . واستخدام المضارع هنا له دلالة أخرى تختص بنية كتابة هذا المجلد ، فثيلا (الرحالة) يصور إسبانيا الخالدة ، الأزلية كما ذكرنا ، الأصلية التى مازالت تحتفظ بهويتها والتى تتحدى الزمن .

وأخيرا ، فكان كاميلو خوسيه ثيلا يقول لنا : « إن إسبانيا هذه التى يزعم الجميع أنهم يعرفونها حق المعرفة ، ها هى ذى أقدمها أنا كما لم يقدمها أحد من قبل ، ها هى ذى تتبدى لى فى شكل جديد وأصيل وتفصح لى عن أسرار لم يطرقها غيرى حتى الآن » .

ورحلات ثيلا فى ربوع إسبانيا والتي سجلها فى عدة مجلدات تحوى
نحوأ من أفضل كتابات ثيلا الأدبية، بإجماع نقاده ودارسى أدبه ، وليس
ثمة حاجة إلى أن نقول إن « رحلة إلى القرية » كانت خير مفتتح للسفرات
التالية لها . وثمة إشارة فى المجلد الذى بين أيدينا إلى تخوف وارتياب
الكاتب من نتائج هذه الرحلة الأولى ، لكن النجاح الكبير الذى تحقق له فى
النهاية كان حافزه الأساسى لتكرار التجربة .

د . محمد أبو العطا عبد الرؤوف

كلية الآلسن - القاهرة يناير ١٩٩٠

أعمال كاميلو خوسيه ثيلا

(١) الروايات .

- ١ - عائلة باسكوال دوارتى . (La Familia De Pascual Duarte)
مدريد ، ١٩٤٢ .
- ٢ - عنبر الراحة . (Pabellón De Reposo)
مدريد ، ١٩٤٤ .
- ٣ - مغامرات ومحن جديدة لـ « لثريو دي تورمس »
(Nuevas Andanzas Y Desventuras De Lazarillo De Tormes)
مدريد ، ١٩٤٤ .
- ٤ - الخلية . (La Colmena)
بوينوس آيرس ، ١٩٥١ .
- ٥ - مسز كالدويل تتحدث إلى ابنها .
(Mrs. Caldwell Habla Con Su Hijo)
برشلونة ، ١٩٥٣ .
- ٦ - قصص من فنزويلا . الشقراء
(Historias De Venezuela. La Catira.)
برشلونة ، ١٩٥٥ .
- ٧ - مزقة الجياح . (Tobogán De Hambrientos)
برشلونة ، ١٩٦٢ .

- ٨ - وقفة وعيد وثامن أيام عيد سان كاميلو لعام ١٩٣٦ فى مدريد.
(Visperas, Festividad Y octava De San Camilo Del año 1936
en Madrid).
- مدريد ، ١٩٦٩ .
- ٩ - طقوس الظلام ٥
(Oficio De Tinieblas 5)
برشلونة ، ١٩٧٥
- ١٠ - أغنية لقتيلين
(Mazurca Para Dos Muertos)
برشلونة ، ١٩٨٣ .
- ١١ - المسيح ضد أريزونا
(Cristo Versus Arizona)
برشلونة ، ١٩٨٨
- (٢) القصص القصيرة .**
- ١٢ - تلك السحب التى تمر .
(Esas nubes Que Pasan)
مدريد ، ١٩٤٥ .
- ١٣ - جريمة الرقيب الجميلة وحكايات أخرى .
(EL Bonito Crimen Del Carabinero Y otras Invencciones)
برشلونة ، ١٩٤٧ .
- ١٤ - الجليقى وفريقه ، وخواطر أخرى إسبانية .
(EL Gallego Y su Cuadrilla Y otros apuntes Carpetovetónicos)
مدريد ، ١٩٤٩ .

- ١٥ - البرتقال فاكهة شتوية .
(La Naranja es una Fruta De Invierno)
سانتا ندير ، ١٩٥١ .
- ١٦ - لوحة أيقونات دون كريستوبيتا الجديدة.
(Nuevo Retablo Don Cristobita)
برشلونة ، ١٩٥٧ .
- ١٧ - قصص من أسبانيا .
(Historias De España)
بالمادي مايوركا ، ١٩٥٧ .
- ١٨ - الأصدقاء القدامى .
(Los Viejos Amigos)
برشلونة ، ٦٠ - ١٩٦١ .
- ١٩ - باقة قصص بلاحب .
(Gavilla De Fábulas Sin Amor)
بالمادي مايوركا . ١٩٦٢ .
- ٢٠ - مصارعة صالونات .
(Toreo De Salón)
برشلونة ، ١٩٦٣ .
- ٢١ - الوحيد وأحلام كيسادا .
(El Solitario Y Los Sueños De Quesada)
بالمادي مايوركا ، ١٩٦٣ .
- ٢٢ - إحدى عشرة قصة عن كرة القدم .
(Once Cuentos De Fútbol)
مدريد ، ١٩٦٣ .

- ٢٣- بنات الهوى . دراما بمصاحبة هزلية وألم قلب .
(Izas, Rabizas Y Colipoterras. Drama Con Acompañamiento
De Cachondeo Y Dolor De Corazón.)
برشلونة ، ١٩٦٤ .
- ٢٤- مشاهد مدريدية جديدة .
(Nuevas Escenas Matritenses)
مدريد ، ٦٥ - ١٩٦٦ .
- ٢٥- اليوم أتيليه .
(Album De Taller)
برشلونة ، ١٩٨١ .
- ٢٦- المرأة وقصص أخرى .
(El Espejo Y Otros Cuentos)
مدريد ، ١٩٨١ .
- ٢٧- شطحات فرانثيسكو دى جويا إى لوشينتس .
(Los Caprichos De Francisco De Goya Y Lucientes)
مدريد ، ١٩٨٩ .
- (٣) قصص الأطفال .**
- ٢٨- سرب الحمام .
(La Bandada De Palomas)
برشلونة ، ١٩٦٩ .
- ٢٩- قصص للقراءة بعد الحمام .
(Cuentos Para Leer Después Del baño)
برشلونة ، ١٩٧٤ .
- ٣٠- ميول موزع ألبان .
(Vocación De Repartidor)
مدريد - برشلونة ، ١٩٨٥ .

٣١- اذنا الطفل رائل . (Las orejas Del niño Raúl)

مدريد ، ١٩٨٦ .

(٤) الروايات القصيرة .

٣٢- لأحديفهم تيموتيو . (Timoteo El Incomprendido)

مدريد ، ١٩٥٢ .

٣٣- سانتا بالينا ٣٧ ، غاز في كل منزل .

(Santa Balbina 37, Gas En Cada Piso)

مليلة ، ١٩٥٢ .

(Café De Artistas)

٣٤- مقهى الفنانين .

مدريد ، ١٩٥٣ .

٣٥- طاحونة الهواء وروايات أخرى .

(El Molino De Viento Y Otras Novelas Cortas)

برشلونة ، ١٩٥٦ .

٣٦- عائلة البطل .

(La Familia Del Héroe O Discurso Histórico De Los Últimos Restos)

مدريد ، ١٩٦٥ .

٣٧- المواطن إيسكاريوتي ركلوس .

(El Ciudadano Jscariote Reclús)

مدريد ، ١٩٦٥ .

- ٣٨- مشاية الأطفال الصدنة .
برشلونة ، ١٩٧٣ .
- (0) أدب الرحلات :**
- ٣٩- رحلة إلى القرية .
مدريد ، ١٩٤٨ .
- ٤٠- أفيللا .
برشلونة ، ١٩٥٢ .
- ٤١- من المينيو إلى البيداسوا .
برشلونة ، ١٩٥٢ .
- ٤٣- يهود ومسلمون ومسيحيون . (Judios, Moros Y Cristianos)
برشلونة ، ١٩٥٦ .
- ٤٤- أول سفرة أندلسية .
برشلونة ، ١٩٥٩ .
- ٤٥- دفتر جواداراما .
مدريد ، ١٩٥٩ .
- ٤٦- رحلة إلى برانس .
مدريد ، ١٩٦٥ .
- ٤٧- صفحات من جغرافيا متجولة .
- (Páginas De Geografia Errabunda)
مدريد ، ١٩٦٥ .

٤٨- لا مانتشافى القلب والعينين .

(De Mancha En El Corazón En Los Ojos ..)

برشلونة ، ١٩٧١ .

(Madrid. Calidoscopio ..)

٤٩- مدريد .

مدريد ، ١٩٧٠ .

(Barcelona. Calidoscopio..)

٥٠- برشلونة .

مدريد ، ١٩٧٠ .

(Nuevo Viaje A La Alcarria)

٥١- رحلة جديده إلى القرية .

برشلونة ، ١٩٨٦ .

قبل الرحلة بأيام قليلة

يستلقى الرحالة على ظهره ، على أريكة Chaise Longue كسيت
بقماش القطن المنقوش وينظر إلى السقف شارد الذهن مطلقا العنان
لخياله الذى يثب كفراشة خرقاء تحتضر وقد أخذت تصطدم فى رفق
بالحوائط وبالأثاث وبمصباح الضوء . يشعر بالتعب ويلقى راحة كبيرة
فى ترك ساقيه - اللتين تتحركان كالعرائس المشدودة إلى خيط - لتأخذا
أى وضع تريدانه .

والرحالة شاب طويل ونحيف . يرتدى قميصا ويدخن سيجارة .
مضت عدة ساعات دون أن ينبس ببنت شفة ، عدة ساعات دون أن يجد
من يتحدث إليه . من حين لآخر يرشف رشفة - لا صغيرة ولا كبيرة -
من الويسكى أو يصفر بصوت خفيف أية أغنية .

يسود الصمت الدار ، فأسرة الرحالة قد أوت إلى فراشها ، وفى
الشارع ، لا تقطع سكينه حراس المنازل الليليين سوى سيارات الأجرة
الضالة تمر على فترات متباعدة .

تعم الفوضى الحجرة . على المائدة ، مئات من الأوراق فى غير نظام
تشهد بساعات طويلة من العمل . ثمة ما بين عشر وأربع عشرة خريطة
فرشت على الأرض أو علقت على الحوائط بدبابيس ضغط ودونت عليها

ملاحظات ورسمت دوائر بالحبر وخطوط سميكة بالريصاص الأحمر
علاوة على أعلام مصغرة ثبتت بدائيس .

- ثم بعد ذلك ، لاشيء من هذا له أية فائدة .. هذا ما يحدث دائما .

ترقد سترة من القטיפفة الخشنة على ظهر أحد الكراسي . وعلى
السجادة إلى جانب كومة من الروايات ، حذاء السفر ، وتنتظر زمزمية
جديدة أن تملأ بالنبيذ الأحمر اللزج المنعش . تدق ساعة الحائط العتيقة
النبيلة المصنوعة من خشب الجوز آخر دقائق ساعة متأخرة من الليل .

ينهض الرحالة ويجول بالغرفة فيقيم من وضع لوحة على الحائط أو
ينحى كتابا جاتبا أو يشم زهورا . ثم يتوقف أمام خريطة شبيهة جزيرة
ايبيريا ويدها في جيبى سراويله وحاجباه معقودان على نحو لا يكاد يرى .
يتحدث الرحالة إلى نفسه في ببطء . في ببطء شديد . وبصوت
خفيض كأنه يريد مداراة حديثه .

- أجل . إقليم « القرية » (١) لا بد وأنه مكان طيب للمشى . . بلد طيب .

بعد ذلك ، سنرى . قد لا أرتحل بعد هذه المرة . يعتمد هذا على
الظروف .

يشغل الرحالة سيجارة أخرى - بعد أن كاد يحرق إصبعه بالسيجارة
الأولى - ويملا قدحا آخر من الويسكى .

(١) الأصل الإسباني هو (Alcarria) كلمة عربية الأصل يقصد بها كل أرض
مرتفعة ومنبسطة وقليلة العشب عامة ، وهي أيضا اسم علم ويطلق على إقليم
طبيعى فى قشتالة يقع معظمه فى مقاطعة (غوادالاخارا) (وادى الحجارة)
وهو أيضا اسم عربى .

- إقليم « القرية » من ناحية مقاطعة غوادالاخارا (Guadalajara)
أما من ناحية مقاطعة كوينكا (Cuehca) فلا . فى كوينكا ، قد أمشى
منطقة غابات الصنوبر ، أو منطقة لامانتشا (La Mancha) بطرقها
البطيئة . من يدري ؟
يأتى الرحالة بحركة بغمه .

- على أنه لا يهتم أيضا أن أحيد عن الطريق قليلا ، هذا إذا ما قررت ذلك
على الإطلاق . على أية حال ، ليس للأمر أهمية ، فليس لأحد أن يلزمنى
بشيء ، ولا لأحد أن يقول لى : اذهب من هنا أو اصعد من هناك أو خذ
طريق هذا المنحدر أو هذا السفح أو هذا السهل لأنه مستو وهين السير .

يقلب الرحالة فى أوراق المائدة بحثا عن مسطرة مزدوجة ، وحين
يجدها يقترب من الحائط ثانياً ويمرر المسطرة على الخريطة والسيجارة
فى فمه ومجعدا ما بين حاجبيه حتى لا يملأ الدخان عينه .

- السير على مراحل ليست بالقصيرة ولا بالطويلة ، هذا هو السر .
أمضى فرسخا مشيا وساعة راحة ، وفرسخا آخر وساعة راحة أخرى ،
وهكذا حتى نهاية الرحلة . عشرون أو خمسة وعشرون كيلومترا هى
مسافة لا بأس بها يوميا . معنى هذا أن أقضى النهار فى الطريق . بيد أن
كل هذه المشروعات ما هى إلا أوراق عديمة الفائدة ، فالأمور تنتهى دائما
على أى نحو تستطيعه .

يبحث عن بعض الملاحظات التى كان قد دونها ويراجع مذكرة ثم
تصفح مرجعا جغرافيا قديما ويبسط على المائدة خريطة للإقليم .

- أجل ، بدون أدنى شك . . إنها الأقاليم الطبيعية . . الأنهار تصل

والجبال تفرق . . إنها الحكمة القديمة وليست ثمة فائدة من وراء أية تقاسيم أخرى .

يشرد الرحالة هنيهة ويأخذ من أحد الأرفف أول كتاب تصل إليه يده :
« تاريخ جليقية » لدون مانويل مورغيا (١) ، مجلد بالكرتون الأحمر
ذهب القدم بلونه وهو لا يحتاجه فى شىء فى الحقيقة ، لقه أخذه دون أن
ينتبه الى ذلك .

- ظريف هذا الكتاب . . فهو كتاب ينضح صبره .

يغلب النوم الرحالة ، فهو يغفو مرتين بينما يقلب فى صفحات
الكتاب ، ثم ينتبه مرة أخرى تماما عندما يقرأ أسفل إحدى الصور :
كرومليك (٢) (Cromlech) تقع فى بونتس دى غارثيا رود ريغث .

يعيد الكتاب إلى مكانه الأول ويفكر فى أن كتبه فى الحقيقة تفتقر إلى
أدى نظام ، فتاريخ جليقية يقبع بين كتابى علم وظائف الأعضاء والصحة
المقرر على المرحلة الثانوية «والشمس تشرق أيضا» لهيمنغواى .
يعود إلى الخريطة .

- المدن سأجنب دخولها مثلما يفعل الباعة المتنقلون والغجر ، ومثلما
يفعل الخنزير البرى ، وحيوان الدلق محترف السرقة .
يحك حاجبه ويقطب جبينه . فهو ليس مقتنعا تماما .

٣

(١) مانويل مورغيا : كاتب ومؤرخ معروف وزوج الشاعرة الجليقية الكبيرة
روساليا دى كاسترو .

(٢) اثر على شكل نصب تذكارى يرجع إلى ما قبل التاريخ .

- وربما لا . . . قد لا أتجنب دخولها . فالمدن يجب دخولها فى ساعة
العصر حين تخرج الصبايا للنزهة قبل الغروب .

يبتسم . عيناه شبه مغلقتين كأنه يحلم .

- حسن . . سنرى .

يصمت بعض الوقت ويأخذ الفكر وهو فى حيرة من أمره وفى
عجلة . الوقت متأخر .

- يالله !

فى نهاية الأمر ، يفكر الرحالة- الذى يشعر بالتعب فجأة كأنه عصفور
جريح - فى أنه لم يتبق سوى أن يبدأ من توه وأنه ربما أسرف فى التفكير
فى أمر رحلة ودّ لو قام بها دون إعداد ، جزافا ، وحسبما تسير الأمور .

يأتى على آخر جرعة فى الزجاجة .

- لا ، هذا ضرب من الخيال . أفضل الأمور أن أخذ زادى وأشرع فى
السير .

ينضو عنه ثيابه ويبسط عليه بطانية من وبر ثم يطفىء النور ويتأهب
للنوم على الأريكة Chaise Longue المبطنة بقماش القطن المنقوش .

فى الخارج تسمع من بعيد طرقات عصى حراس الليل على الأرصفة
وتتسلل خيوط النهار من خلال شيش النوافذ ، وتمر عربات الروبائيكيا
المبكرة بطيئة خدرة .

هاقد غلب النعاس الرحالة فى لحظة مولد النهار ، وكان اليوم الجديد
فرخ يخرج على استحياء من قشرته الدافئة المحطمة .

طريق وادي الحجاره



لعلها كانت ساعة الفجر . . . كلا . . . لم تكن بعد ساعة الفجر : كان قبل ذلك بزمن . بُعيد أيام ، يستيقظ الرحالة فى الليلة الأخيرة ، أحلك الليالى سوادا . يستيقظ حتى قبل عصافير المدينة الرمادية الصغيرة ، يرتدى ملابسه فى صمت على ضوء مصباح كهربائى . كم من الأعوام مضت دون أن يبكر على هذا النحو ، يد اخله شعور غريب ، شعور بالراحة ، كأنما يكتشف من جديد شيئا كان النسيان قد طواه بغير وجه حق .

وهو يحلق نطقه فى هذه الساعة بينما ما يزال جميع جيرانه نياما ونبض المدينة - كنبض مريض - يتواتر على وهن كأنه يستحى أن يحس به .

والرحالة مبهتج . يترنم على وجه التقريب بموسيقى أحد الأفلام ويتكلم بعد ذلك بقليل مع زوجته التى قامت لتعد له الفطور . فالرحالة متزوج . والرحالة المتزوجون ، عندما يتأهبون للرحيل ، لديهم دائما من يسخن لهم الفطور فى الساعة الأخيرة ، ومن يحادثهم بينما يحلقون نطقهم على ضوء المصباح الكهربائى المهتز عند الصباح .

يهبط الرحالة درج منزله قبل ساعة من قيام القطار . قبل ذلك ، كان قد

ذهب ليودع طفله الصغير الذى يرقد على بطنه كشبلى صغير لأنه يشعر بالحر .

- وداعا . تحمل معك كل شىء ؟

- وداعا . أعطنى قبلة . نعم ، أعتقد أنى لم أنس شيئا .

عندما يبلغ الشارع ، يتقدم مرددا أغنية بصوت منخفض فأذنه ليست موسيقية ، والأغنى لا يستطيع إلا أن يبدأها . لم يفتح المترو أبوابه بعد ، وعربات الترام البطيئة البعيدة المتهاككة تبدو كأنها حمير عجائز منتفخة صفراء ميتة .

وللرحالة فلسفته الخاصة فى المشى ، فهو يرى دائما أن كل ما يطرا من أشياء إنما هو خير ما يمكن أن يحدث ، والسير على الأقدام هو أفضل الأشياء إذا ملأسار فى نهر الطريق متسمعا كيف تزد المنازل صدى مسامير نعاله .

ما زالت نوافذ الدور مغلقة والشيش مسدلا . وراء الزجاج ينام رجال ونساء المدينة ، من يدرى ، أفى شقاء أم فى نعيم ؟ ثمة دور تدل هيئتها على أنها تضم سكانا سعداء ، وهناك شوارع كاملة ذات مظهر نحس كأنما تأوى رجالا بلا ضمير ، تجارا ومرابين وقوادين ومجرمين عتاه لطح الدم أرواحهم . أحيانا أخرى قد لا تجد فى بيوت حسنى الطالع نبتة تعناع أو ريحان فى الشرفات ، وفى أحيان أخرى تجد بيوت من أغرقهم الشقاء وطبعوا بميسم الحقد واليأس القاسى تنيه شرفاتها بالغرنوق أو القرنفل الأحمر الكبير الحجم كالتفاح . إن وجه المنازل لشىء فى غاية الغموض ، وقد يشغل الفكر فى أمره زمنا طويلا .

ويأخذ المسافر - بعد أن شرع يقلب الأمر في رأسه - طريق أنسوار
حديقة الريترو (١) (El Retiro) ويطل إلى بوابة القلعة (٢)
وهو يرى بوضوح كل ما يفكر فيه وربما بشيء من الغموض كل ما يراه
ينفض النهار في تناقل وفي ارتياب وحذر فوق أسلاك الكهرباء وفوق
أسطح المدينة بينما تصرخ العصافير وقد صحت لتوها فوق أشجار
الحديقة وكان مكروها أصابها . وفي الحديقة أيضا تسير على العشب
جمهورية القطط الضالة ، دزيتان من القطط الرمادية الجرباء الملعونة ،
قطط ليس لها مكان بجوار أية مدفأة ، فتسير في صمت كأنها مساجين
بلا أمل في الحياة أو مرضى بلا أمل في شفاء .

ما زالت أبواب المنازل مغلقة كأنها صرر مال بخيلة شقية ، وينظر
حراس الليل ، بأشرطتهم الجديدة البراقة ، في ارتياب إلى الرحالة المار في
طريقه إلى محطة القطارات وجرايه على كتفه سائرا دون اهتمام بما في
ذلك من عدم الاهتمام بمظهره .

ويسير الرحالة ممتيا نفسه بخير الآمال : فهو يفكر في لمس قلوب
رجال الطريق والنظر إلى أرواح المسافرين والإطلال على نظراتهم كمن
يطل من حافة بئر .

وذاكرة الرحالة ذاكرة قوية ، لذا يريد أن يتخلص من أية نية سيئة -
كأنه يتخلص من حمل ثقيل - قبل أن يغادر المدينة . تخرج من صدره
وتتدحرج على بلاط الرصيف أبيات دون أنطونيو (٣) - أقدر من وجد من
الرجال جسدا وأطهرهم روحا حسب مقولة أحدهم

(١) حديقة عامة شهيرة فتحت أبوابها للعمامة بقرار ملكي في عام ١٨٧٦ .

(٢) أشهر بوابات مدريد . يعود تاريخ بنائها إلى أواخر القرن الثامن عشر .

(٣) أنطونيو ما تشادو ، شاعر إسباني كبير (١٨٧٥ - ١٩٣٩ م) - المترجم .

عند عودتي ، أود لو أستطيع أن أقول الحقائق الصغيرة التي تشرح
وحدها كأنها النهر الجاري . فإذا ما أحطت بأناس أعفاه يدخرون شهورا
بأكملها - ومن يدرى لعله خلال اعوام كاملة ؟ ليشثروا سجادة صغيرة
إلى جانب الفراش ، وددت لو أمكنني أن أردد ، وفي عيني بشاشة وعلى
وجهي تعبير استسلام ، هذه الكلمات الحكيمة لدون أنطونيو :

في كل مكان رأيت

قوافل حزن ،

متكبرين ومكتئبين

سكاري ظل أسود .

ومتحذلقين متخفين

ينظرون، فيصمتون ويفكرون

في أنهم عارفون لأنهم لا يشربون

خمر الحانات .

أشرار يمشون

فتنبعث من الأرض ربح خبيثة ...

ما إن ينتهي الرحالة من شعره حتى يصل إلى ميدان لاثيلس^(١)
مع أوائل خيوط الصبح المستحية تقوم آخر بنات كباريه لاس ياماس ببيع
أنيسونهن الحزين للمعريدين من أبناء الأثرياء القافلين إلى بيوتهم .
وهن صغيرات هؤلاء البنات ، صغيرات جدا ، بيد أن في نظرتهن كل ذلك

(١) نافورة مدريدية معروفة

الأسى المتفرد والمقدس ، أسى الحيوانات التى حان ذبحها والتى يحملها
سوء الطالع وإثم النفوس من مكان لآخر .

يأخذ الرحالة طريق البرادو (El Prado) . تحت أعمدة تصير
البريد^(١) ، يغط بعض المتسولين القذرين فى نومهم وقد افترشوا
الحجر الصلب . وتمر امرأة مسرعة تغطى وجهها فى طريقها إلى أول
قداس ، بينما يدخن زوج من الحرس فى سأم وهما جالسان على مقعد
وبندقيتهما بين ساقيهما . وتحمل عربات الترام الليلية السوداء
الغامضة سقالاتها الخشبية على العجلات من مكان إلى آخر يقودها رجال
بدون زى ويليسون قلانس ، وهم سكون كالموتى ، ويفطون وجوههم
بكوفيات .

- أيضا أود أن أقول - وسعت رحمته كل شيء - الحقيقة الأخرى :

وفى كل مكان رأيت

إناسا يرقصون ويلعبون

عندما يقدررون ويحرثون

أربعة أشبار من الأرض .

فى حياتهم ، إذا جاءوا مكانا

لايسألون إلى أين يجيئون

وإذا ساروا امتطوا

صهوة بغلة عجوز .

(١) افتتحه ملك إسبانيا فى ١٩١٩ .

ولا يعرفون العجلة

ولا فى أيام الأعياد

وحيث يوجد خمر يشربون خمرًا

وحيث لا يوجد خمر يشربون ماء باردا .

هم أناس صالحون يعيشون

ويعملون ويمرون ويحملون

وفى يوم كائى يوم

يرقدون تحت التراب .

عند أسوار حديقة النباتات يحس الرحالة - أحيانا يحدث له هذا -
برعشة مفاجئة .

يشعل سيجارة ويحاول أن يبعد عن رأسه الأفكار الشريرة . يمر اثنان
من عمال الترام وأيديهما فى جيوبهما وعقب سيجارة فى فيهما ،
لا يتلفظان بكلمة واحدة . وينقب طفل عليه أسمال بالية بعصا فى كومة
قمامة . عند مرور الرحالة يرفع جبهته وينتحي جانبا متظاهرا بأنه
لا يفعل شيئا . ويجهل الطفل أن المظاهر خادعة وأنه (تحت عباءة بالية قد
يستتر رجل يجيد شرب الخمر) (١) وأنه فى صدر الرحالة ذى المظهر
الغريب أو المأثر للسلامة قد يجد قلبا مفتوحا على مصراعيه كأبواب
الحقل . والطفل الذى ينظر مرتابا ككلب زجر لا يعرف أيضا إلى أى حد
يحس المسافر بحنان لانتهائى نحو الأطفال الضالين الذين إذا ما انقلق
الصبح يفتشون بعصا فى أكوام القمامة الطازجة . . الدافئة . . العطرة .

(١) قول إسبائى يفيد أن المظهر يخدع .

فى الطريق إلى المجرز ، تمر نعجات صلعاوات قذرات تحمل حرف B باللون الأحمر على ظهورها ، يسوسها رجال يضربونها بالعصى بين لحظة وأخرى ربما بغرض التسلية ، بينما لاتفتأ النعجات تلحق فى سيرها الأسفلت العقيم القذر وفى نظرتها تعبير يجمع بين الدناءة والغباء.

تقلب فى منخفض كويستادى مويانو (Cuesta De Moyano) عربة خضار بهيجة ، وتحفظ أكشاك الكتب المستعملة فى تكتم كنزها الهائل من الأوهام الواهية التى فشلت - أه - دون أن يدرى أحد .

نزولا إلى محطة القطارات تبيع بعض النسوة التبغ والموز وشطائر عجة البطاطس ، ويرى جنود بحقائبهم الخشبية على أكتافهم ، وفلاحون يلبسون قلائس فى سبيلهم إلى منازلهم . وفى الحدائق ووسط ضجة آلاف العصافير ، يسمع تغريد الشحرور الأسود .

فى فناء المحطة ، طابور قطع التذاكر طويل وبطء وتنام أسرة على مقعد حديدي تحت لافت تقول : «أحذر السرقة» ، وتحبى الرحالة على الحوائط إعلانات عن منتجات قد مضى عليها ٣٥ عاماً ، إعلانات عن أدوية لم تعد موجودة الآن : لصوق مسامى وكلسونات مضادة للبرد ووسائل أتوماتيكية رائعة لمكافحة الصلع .

يشعر الرحالة بشيء من الاختناق عندما يصل إلى رصيف المحطة . فالقطارات ترقد فى سكون على القضبان السوداء ، ويسير الناس فى صمت كالمروعين ليأخذوا أماكن مريحة لهم فى عربات القطارات المصطفة . وتشم مصابيح الإنارة الواهية ضوءاً خافتاً على الساحة . بينما يبحث الرحالة عن عربة الدرجة الثالثة يفكر فى أنه يسير فى مخزن كبير

للتوابيت تسكنه أرواح معذبة على أكتافها زادها المزدوج من الخطايا والأعمال الصالحة .

العربة معتمة . وعلى المقاعد الخشبية الخشنة يدخل المسافرون شبه نائمين . من لحظة لأخرى يسمع صوت إشعال عود ثقاب ويرى بريق طرف سيجارة لعدة ثوان يضىء وجها محمرا وغير حليق . يجلس عدد من العمال ، كل سترته على كتفه وسلة شطائره ملفوفة فى منديل على ركبتيه .

يصعد القطار نفر من الصيادين تتدلى من أكتافهم سلال الخيزران ويبحثون فى عناية عن موضع لشصوصهم الطويلة . وتدخل نسوة يحملن سلالا كبيرة على أذرعهن . . فلاحات نزلن مدريد لبيعن البيض وسجق الخنزير وليبتعن قطعة قماش منقوشة لعمل فستان أيام الأحاد أو ليشترين قبعة لأزواجهن . ويأخذ اثنان من رجال الحرس المدنى مكانيهما أحدهما قبالة الآخر فى ركن الديوان القريب من الباب ، تحت جرس الإنذار وتحت اللوحة الخزفية المدونة عليها لائحة السكك الحديدية.

تطفأ أنوار الرصيف ويصير الظلام تاما . ويثب إلى القطار فى اللحظة الأخيرة جنود الخيالة المتجهون إلى الكلاه دى إينارس (Alcalá De Henares) والذين يقطعون نفس هذه المسافة يوميا .

يقوم القطار ، فالساعة الآن السابعة ، وعندما يترك مظلة المحطة يكتشف الرحالة فجأة أن النهار قد طلع . وكان قد غادر المحطة فى آن واحد قطاران يسييران فى تواز إلى أن ينعطف أحدهما ناحية الجنوب فى طريق ختافى (Getafe) . تبعث البهجة رؤيتهما فى سيرهما وأحدهما فى موازاة الآخر بينما يتزاحم الركاب فى النوافذ ليرى كل فريق منهم

الفريق الآخر ، فيتصافح بعضهم بالأيدى ويصرخون كأنما يستحثون القطار على الجرى على نحو أسرع ! وحقيقة الأمر - لا أحد يعلم لِمَ ؟ - أن ركاب أى قطار دائماً ما يداخلهم شيء من الغيرة نحو ركاب أى قطار آخر ، وهو شيء يحدث ولكن يصعب شرحه . قد يكون - السبب هنا غير واضح - لأن أى راكب درجة ثالثة يود لو استبدل تذكرة راكب آخر حتى ولو كانت درجة ثالثة أيضاً .

تسطع فوق المدينة سماء متوردة قاسية مصقولة كالمرآة ، سماء بدت كأنها من الزجاج الملون . على مدى وقت طويل ، يسير القطار بين القضبان وأكوام الفحم ، وترى ماكينات لم تعد تستعمل ، قاطرات عتيقة أحيلت إلى التقاعد تشبه الجياد الميتة فى المعارك قد تركت لتجف فى الشمس .

فى إحدى العريبات الواقفة بمعزل عن القطارات احتشدت خمس عشرة بقرة سوداء ذوات قرون طويلة وأضرع مشعرة ضئيلة الحجم تنتظر فى صبر خنجر النحر وسكين استنزاف دمائها . يفكر الرحالة فى أن هذه الحيوانات ربما يقتلها الظماً ، فهو لا يعرف فى الحقيقة ما بها .

وتلوح الشمس فى الأفق عند مرور القطار بأخر تحويلة وبأخر إشارة ضوئية بالمحطة . فى هذه الساعة لم يخرج الأطفال بعد للعب فى الأحياء النائية . عن بعد تمكن رؤية مرتفع لوس أنجلس^(١) (Los A´ngeles) وحيداً . لا تبدو تلك ضواحي مدريد ، فالحقول خضراء والعشب نام : بين حقلين مزروعين وآخر مهمل ، وثالث تتمايل فيه شقائق النعمان فى رفق مع نسائم الصباح العليقة . يسير القطار الآن فى طريقه الحديدي المفتوح فى الوقت الذى يترك فيه الرحالة النافذة ويجلس ليشعل سيجارة ويلقى برأسه الى الخلف .

(١) ضاحية قريبة من العاصمة .

عند المرور بمحطة باييكس (Vallecas) يهتز هواء الديوان الساكن بحدة ، ويعرض رجل يرتدى سترة « سبور » أرجوانية اللون ومندبلا حول رقبته وله سن ذهبية .. يعرض صارخا أوراق لعب تحمل أرقاما فى الظهر .

- جربوا حظكم ياسادة . الجائزة صندوق ممتاز من الطوفى أو كيس لوز .. اختاروا .. بخمس سنتيمات ورقة اللعب .. بعد ذلك وتقديراً للجمهود الكريم سأجرى قرعة على الدمية مانوليتا هذه اللعبة الفريدة .

يريد الرحالة أن يجرب حظه فيشتري عدة أوراق ويبقيها فى يده ويلعب فى تردد ، ففكرته عن اللعب محدودة . يرفع رأسه . وينظر من النافذة . فى الأفق ناحية الشمال ، سلسلة جبال غيوادارما وبعض مرتفعاتها - لاماليثيوسا وبالدمارتين ولاس كابيثس دى إيرو - لاتزال مغطاه بالجليد .

قال الرجل ذو السن الذهبية كالعادة إنه يحتاج ليد بريئة للسحب ثم كشف ورقة اللعب .

- السيفان .. (١) أين ورقة السيفين ؟ ياترى من المحظوظ ؟

لم يحالف الرحالة الحظ فقد أنفق ريالين فى ولد وجواد وملك . كانت ورقة السيفين مع رجل لم يكلف نفسه مشقة الابتسام . فهو يأخذ صندوق الحلوى دون أن ينظر إلى أحد .

(١) يقصد هنا ورق اللعب الإشباني المكون من أربع مجموعات أساسية : العصى والسيف والذهب والأتماح . - المترجم .

يفعل ذلك بفتور كأنه يريد أن يعطى انطباعاً بأنه اعتاد تلقى الأنباء الهامة دون أن يحرك ساكناً . وينظر إليه كل الركاب ، وربما فعل أحدهما ذلك بإعجاب . . يالها من طريقة للتغلب على الموقف !

يشعر الرحالة بأنه مضطر هو أيضاً لأن يجد لنفسه مخرجاً طيباً ثم يداخله إحساس مفاجيء فيرفع صوته :

- أعطني كل الأوراق التي تحمل رقم ثلاثة ، فرقم ثلاثة سيربح !

قرب بيكالبرو (Vicálvaro) مر المفتش وثقب التذاكر .

- هكذا يكون الكلام : هذا السيد سيربح الجائزة بعشرين سنتيماً فقط . فلتذهب إليه كل أوراق الثلاثة .

يقلب الرحالة عينه وينتظر ، فهو مطمئن إلى فوز ورقة الثلاثة بعد قليل ، ويفكر في أن يرد عندئذ مقاطعاً لا تكمل فمعى الأوراق الأربع . على يمين الطريق ترى تلالاً خضراء وشعاباً طينية حائلة إلى الحمرة . يقرأ أحد رفاق السفر مجلة أسبوعية متخصصة في مصارعة الثيران ، ويطيير زنبور صعوداً وهبوطاً على زجاج النافذة .

يدوى صوت الرجل ذى السترة الأرجوانية فى عربة القطار :

- ورقة سبعة الأقداح : من معه ورقة سبعة الأقداح ؟

يرتعش الرحالة من قمة رأسه الى أخمص قدميه ويشعر أن قلبه يدق بعنف وقد جف حلقه وضاق فتحة عينه . يخشى أن تتجه جميع الأنظار إليه وأن تنشب فيه كالسهام ، فيبتسم بخبث مصطنع كأنه يقول : أين خبات أوراق الثلاثة ؟

ويفكر الرحالة دون أن يدري لم ، ربما لداعى التسلية ، فى مياه نهر

تمر تحت جسر ، وعندما يفتح عينيه شيئاً فشيئاً يكتشف أن لا أحد ينظر إليه .

(يهبط الصيادون في سان فرناندو دي خاراما (San Fernando)
De Jarama)معلقين شصوصهم على الأكتاف كأنها بندقية ويسرون
واحداً تلو الآخر في طريق ضيق يوصلهم إلى النهر .

على الجانب الآخر ، ترى ثيران المصارعة سوداء . . متفردة . .
صامته . . سمينه . . براقه . . تفيض جلالاً . السماء نقية شفافة
والريف وضاء كأنه كارت بوستال بقمحه الأخضر وأزهاره الحمراء
والصفراء والزرقاء .

في توريوخون دي أردوث (Torrejón De Ardoz) يضع أحد عمال
المحطة على عينه نظارة شمس ، فهو رجل متحضر . ويُنتبه الرحالة إلى
أن كلمة أردوث (Ardoz) وكلمة شمس (Sol) متجانستان صوتياً .

حينئذ يتفكر برهة ثم يقول من بين أسنانه :

تقف عربية الدرجة الثالثة

أمام الـ . . W.C.

وعلى لافتة يقرأ ما يأتي : توريوخون دي أردوث

وعلى الرصيف يمشى

بنظارته الشمسية

وبقيعته

عامل المحطة .

يضحك الرحالة خفيضا . يصعد إلى القطار بعض العمال بدوا كأنهم من الهنود الحمر ، تمتلىء وجوههم بأخاديد غائرة كأنها آثار طعنات وشعرهم أسود متلصق بجباههم ، ويصعد أيضا رجل بدين له هيئة الاشتغال فى الموالدو الأسواق ويدخن سيجارا . تمام السابعة والنصف صباحا . يفسح الرحالة للرجل البدين مكانا بجانبه .

- شاكر !

- عفوا !

يخلع الرجل قبعته ويمسح على رأسه بمنديل .

- سيكون اليوم قائظا .

- أجل .

- إلا إذا هبت زوبعة ...

ينفخ الرجل بينما يحاول الاستقرار فى وضع مناسب ثم يخرج السيجار من فمه وينظر إليه .

وللرجل أسنان بلون التراب وهى كبيرة كأسنان الحمير .

- وهذا ما أقوله ، نحتاج إلى زوبعة .

- أجل ، أجل .

يخرج دفترو ورق تبغ وينحى منه ورقتين أو ثلاثا ويلصق بها السيجارة .

- هكذا أفضل ..

- بالطبع .

- لأنى إذا لم أفعل ذلك لا أستطيع شد النفس . هذا النوع من السيجار غالبا ما يكون رديئا .

قدما الرحالة تؤلمانه منذ أن خرج من مدريد . إنه الحذاء الجديد . أحيانا يؤلمه وأحيانا يسبب له فقاعات فى قدميه . يقلب فى جرابه ويخرج زوجا آخر من القماش بنعل من القنب .

- يبدو أن قدميك ليستا على مايرام .

- أجل . إنهما لتؤلماننى قليلا .

- طبعا ، إنه الحذاء الجديد .

- أجل ، على رأى المثل ...

ينتظر رجل السيجار إلى الرحالة وكأنه سيهم بسؤاله : أى مثل ؟ بيد أنه فى النهاية لايقول شيئا .

فى الممر ، يسير رجل آخر يدخن سيجارا أيضا وبيده حقيبة أوراق . له هيئة ممرض وهو شاب مهندم يرتدى قميصا مخططا طوليا باللونين البرتقالى الزاهى والأبيض .

عند الكلاه دى اينارس ، يمر القطار بسور المقابر . وكالعادة يطفو قليل من الضباب فوق صفحة النهر . يهبط هناك عدد كبير من الركاب ويبقى القطار خاويا تقريبا ، فقد هبط منه الصيادون الذين لم يهبطوا فى سان فرناندو ، وجنود الخيالة والرجال ذوو القلنسوات السوداء والنسوة الممتلئات العنيفات نوات الشوارب اللائى كن يحملن سلالا .

ثمة أنسة شقراء تدل هيئتها على أن اسمها راكيل أو إسبرانثيتا أو أى شىء من هذا القبيل ، شعرها ملئ بالتمويجات ويمثبت الشعر

وترتدى قميصا من الصوف ذا خطوط ايقية باللونين الأخضر والأحمر، تداعب أحد رجال الحرس المدنى الشباب له شارب مشذب بنظام على حد قول الحلاقين . فى بيت الرحالة بمديرى صورة من فرنسا عنونها : « الحب والربيع » .

على الرصيف يمر شحاذ ملتج يجمع أعقاب السجائر اسمه ليون يلبس حذاء من قماش القنب لونه أزرق سماوى يقول له أحدهم : تعال يالليون فأنا أحبك كثيرا . هل لك فى سيجارة ؟ ثم عندما يقترب منه ليون يصفعه صفة تدوى كضربة السوط . يضحك الجميع بينما ليون ، الذى لا يتفوه بكلمة وتنضح الدموع من عينيه كأنه طفل ، يذهب فى صمت مطأطأ رأسه ثم لا يلبث أن يعاود الانحناء بعد حين ليلتقط عقب سيجارة . عند نهاية الرصيف ، ينظر الى الخلف . ليس فى عينيه حب ولا كراهية فتبدوان كعينى أيل محنط أو ثور عجوز يائس ولا يزال الدم ينزف من أنفه .

فى مكو (Meco) تنتظر عربة ألبان عند المزلقان حتى ينتهى القطار من المرور ، وتحمل نسوة متشحات بالسواد دلاء ماء . ما يزال الريف خضرا مزدهرا . ياكل الرحالة ثمرة مشمش أخرجها من جرابه .

- تفضل .

- بالهناء والشفاء .

ليس لرجل السيجار فعلا مظهر من يحب المشمش .

عند أئوكيكا (Azuqueca) ، تحرت أربعة بغال الأرض . وحسب مقولة العم مدخن السيجار ، يطلق على أهل أئوكيكا لقب « الدجاج الراقد على البيض » لانهم أحضروا مرة دجاجة وأرقدوها على اثنتى

عشرة بيضة ورغم الجهد الجهد الذي بذلوه لم يستطيعوا إخراج ثلاثة عشر فرخا من الاثنى عشرة بيضة .

يسير القطار بمحاذاة نهر الإينارس حتى وادي الحجارة فينهب الارض نهبا ، وكأنه في عجلة من أمره ، وقبل أن يصل الي محطة وادي الحجارة بقليل يحمل الركاب امتعتهم ويتواترون عند الأبواب وفي الممرات . يهبط الرحالة آخر الركاب فهو منجز مهمته سواء أتأخر أم تقدم ربع الساعة في مغادرة القطار ، وبوسعه ألا ينجزها على الإطلاق ، لن يحدث شيء .

يرفع الرحالة زاده على ظهره ويعلق الزمزمة في وسطه ويجد في طريقه صاعدا إلى قلب المدينة . يعبر نهر الإينارس الذي يهبط عكرا ومحملا بالطمى ويمر أمام ثكنة عسكرية . يتطلع إليه بعض الجنود الجلوس عند الباب حين يمر أمامهم . وعندما يصل منازل المدينة على يسار الطريق يدخل حانة ليروى ظمأه . وللحانة اسم جميل . تسمى : أنضل ما في العنب .

يترك حاجياته في مقهى قريب من محطة الحافلات ويذهب إلى مكتب التلغراف ليرسل برقية لزوجته . تشير الساعة ماركة (Electrique Brillié) المدلاة بسلاسل مذهبة في وسط الصالة إلى التاسعة وعشر دقائق . يشتري الرحالة الصحف عند عودته للمقهى من طفل صغير عليه أمارات الذكاء كأنه فأر موهف .

- ماعمر ك ؟

- خمس سنوات ونصف .

- ما اسمك ؟

- باكو. لخدمة الرب وخدمتك .

- تبيع جرائد كثيرة ؟

- نعم ياسيدى ، أبيعها كلها . فى الثانية عشرة عادة أكون قد فرغت منها كلها ، اتعلم ياسيدى ، فى العام الماضى لم تكن الحال كالآن فقد كنت أصغر سنا ولم أكن أجيد السعى .

يقرا الرحالة الجرائد بينما يتناول فطوره للمرة الثانية ، ثم يخرج للنزهة فى المدينة . يجب أن يحول شيئا من المال فى البنك .

يرقد تصرد دوق الدائرة الأميرية مكوما على الأرض . إنه لشىء مؤلم . لا بد وأن كان قصيرا رائعا فهو كبير كبير أو كثكنة عسكرية . وسط الطريق ، يمر أبه وجهه ملىء بالبثور ويديه طاقية صفراء . يمضى مسرعا فرحا متفائلا لا يتمالك نفسه من الضحك ويفرك يديه فى بهجة . إنه أبه سعيد تغمره البهجة . يدخل الرحالة حانوتا يبيع كل شىء .

- أديكم أى شىء تقليدى هنا ، أى شىء يمكننى أن أحمله معى كتنكار من وادى الحجارة ؟

- شىء تقليدى تقول ؟

- نعم .. هذا ما أقول .

- لا أعرف .. إلا إذا كنت تسأل عن الكعك السكران ،^(١) !

(١) نوع من الكعك شائع فى إسبانيا - المترجم .

يدخل الرحالة محلا صغيرا للمصنوعات الجلدية تفوح منه رائحة جلد وشحم وصاحبه منتفخ تغذى جيدا فلا متمسح له تقريبا بالداخل .
يبتاع الرحالة سرجا من الجلد .

- هل هو لبغلة ؟

يتردد الرحالة لحظة .

- نعم ياسيدى .. لبغل برتغالى هو جوهرة . أريد أن أعد له طاقما جيدا . سوف أهديه للقس عم زوجتى . أتعلم ؟ فى بلدتى يركب القساوسة البغال . ليس كالحال هنا حيث يركبون الحافلات . ويدعى عم زوجتى روسندو وقد أصبح قسا بماغاش ، ولقد سمى بغلة كبيتان . مؤخرا ، عرضوا على ضعف ثمنه .

عندما ينتهى الرحالة من خطابه يلتفت إلى أنه ماكان فى حاجة إلى الكذب على هذا النحو ، فالبائع لم يستمع إليه تقريبا .

- هذا السرج جيد . إنه أفضل ما عندى .

- عظيم فليكن هذا إذا .. من فضلك ، هلا نقشت عليه التوقيع والتاريخ حتى يرى عم زوجتى أنى لاخادعه وأنى حقيقة اشتريته من وادى الحجارة ؟

- حسن ! يالويسيتو ، يالويسيتو !

من المخزن يأتى صوت واهن لطفل .

- فى الحال !

- أسمع يابنى ، وقع فى هذا المكان ، إنه لهذا السيد .

ينظر الطفل إلى الرحالة ويخرج الريشة والحبر من أحد الأدراج ،
ويخط جميل لخطاط مبتدئ، يكتب في ظهر السرج على الجلد
الخششن : كاسامونتس - وادى الحجارة - السادس من يونية
١٩٤٦ (١) .

(١) فى الثالث من أكتوبر ١٩٥٩ نشرت صحيفة القرية الجديدة نعى السيد دانييل
مونتس مورينو ، حرفى . وهو صاحب محل الجلود الذى ابتاع منه الرحالة
سرجالبفل القس عم زوجته .

من نهر الإينارس الي نهر التاخونيا

يخرج الرحالة من وادي الحجارة إلى طريق سرقسطة (Zaragoza)
سيرا على قدميه بمحاذاة النهر . الوقت ظهر والشمس الحارقة تسقط
عمودية على الطريق . ويسير الرحالة إلى جانب الطريق ، على التراب ،
فالأسفلت صلب وساخن ويفسد الأقدام .

يمر بمطعم صغير خارج البلدة له اسم موح ورتان ، يسمى المطعم :
أسرار طنجة . قبل ذلك ، كان الرحالة قد دخل محل خضار ليشتري
طماطم .

- أعطيتني ثلاثة أرباع كيلو طماطم .

- ماذا ؟

بائعة الخضار صماء تماما .

- هلا أعطيتني ثلاثة أرباع طماطم ؟

لا تحرك البائعة ساكنا . تبدو غارقة في التفكير .

- مازالت خضراء .

- لا يهم ، أريدها للسلطة .

- ماذا ؟

- لا بأس بها .

من المحتمل أن تفكر بائعة الخضار أن من واجبها ألا تباع الطماطم
خضراء .

- أذهاب أنت إلى سرقسطة لوفاء نذر ؟

- كلا ياسيدتى .

- ماذا ؟

- لا ، لا .

- من قبل ، كان الكثيرون يذهبون إلى سرقسطة وكانوا يحملون
أيضا أمتعة تدلت منهم .

- كان ذلك من قبل ياسيدتى . هلا أعطيتنى ثلاثة أرباع كيلو طماطم ؟

لا يستطيع أن يصرخ بأكثر مما يفعل فقد جف حلقه . من أجل ثمرة
طماطم كان على استعداد لأن يدفع حتى خمس بزتيات . يتكدس بباب
محل الخضار أطفال يرمقون الرحالة بنظرهم ، وهم أطفال تباينت
أحجامهم وألوان شعر رؤوسهم ، أطفال لا يتكلمون ولا يتحركون وإنما
ينعمون بالنظر - كالقطط - دون أن يطرفوا بعيونهم .

ينبه طفل أحمر الشعر ووجهه ملئء بالنمش الرحالة :

- إنما صماء

- هذا ماأراه يابنى .

يبتسم الطفل .

- أذهب إلى سرقسطة لوفاء نذر ؟

- لا يملكى لست ذاهبا الى سر قسطة .. هل تعرف أين يمكننى شراء ثلاثة أرباع كيلو من الطماطم ؟

- أجل ياسيدى ، تعال معى .

يخرج الرحالة بحثا عن الطماطم بصحبة عشرين أوخمسة وعشرين طفلا ، يركض بعضهم بضع خطوات حتى تتسنى له رؤية الرحالة جيدا أو ليسير دائما بمحاذاته . البعض الآخر يصيبه الملل ويتخلف عنه فى الطريق . وتسال امرأة بباب دارها الأطفال بصوت خفيض : ماذا يريد ؟ فيرد الطفل ذو الشعر الأحمر الكثيف مسرورا : أبدأ ، نبحث عن طماطم ! ولكن المرأة لا تكتفى بهذا الرد وتعاود الكرّة : أذهب هو إلى سرقسطة ؟ فيلتفت الطفل إليها ويجيبها بجفاف يشبه الاستياء : لا ، ألايذهب من هنا إلا إلى سرقسطة ؟

مرورا أمام المطعم يشعر الرجل الذى لن يذهب إلى سرقسطة كأنه غريق أخرج لتوه من بركة ماء . يسير وإلى جانبه مساعده ذو الشعر الزعفرانى اللون .

كان الطفل قد سألّه : أسمح ياسيدى أن أرافقك بعض الهكومتترات ؟ ولما كان الرحالة يكن إعجابا لاحدود له بالأطفال متصنعى الكلام فقد أجابه :

- حسن ، أسمح لك أن تصحبنى عدة هكومتترات .

ويتوقف الرحالة ليغتسل عند جدول ماء فى الطريق المؤدى إلى سرقسطة .

- الماء بارد منعش وصاف كعين الديك .
- ماء شفاف ، أليس كذلك ؟
- بلى يا ولدى . إنه لشديد الشفافية .
- يخلع الرحالة عنه جرابه وينضو الثياب عن نصف جسده . يجلس
الطفل على حجر ليشاهده .
- لست مشعرا .
- كلالست مشعرا .
- يجلس الرحالة القرفصاء ويبدأ الاغتسال مبللا يديه .
- أذهب الى مكان بعيد ؟
- حسنا ليس بالبعيد جدا ، ناولنى الصابون .
- يفتح الطفل علبة الصابون ويعطيها له . هو طفل مراع للذوق .
- لك الله إذا ذهبت بعيدا . ، فى هذا القيظ .
- أحيانا يشتد القيظ عن هذا . أعطنى المنشفة .
- يتاوله الطفل المنشفة .
- هل أنت من مدريد ياسيدى ؟
- يقرر الرحالة أن يبدأ بالهجوم بينما يجفف جسده .
- كلا ، لست من مدريد .. ما اسمك ؟
- أرماندو ! فى خدمتك ، أرماندو مدندخر لويث .
- ما عمرك ؟

- ثلاثة عشر عاما .
- ماتدرس ؟
- أنا خبير .
- خبير ! فى ماذا ؟
- أنا خبير .. خبير !.
- ماوظيفة أبيك ؟
- يعمل فى المجلس الإقليمى .
- مااسمه ؟
- بيو .
- ماعدد إخوتك ؟
- نحن خمسة : أربعة أولاد وبنات واحدة . أنا أكبرهم جميعا .
- هل جميعكم شقر ؟
- أجل ياسيدى . لنا جميعا شعر أحمر حتى أبى .
- تغمز الصبى مسحة حزن غامضة ، فودّ الرحالة لو لم يسرف فى السؤال . يفكر قليلاً بينما يحفظ المنشفة والصابون ثم يخرج من جرابه الطماطم والخبز وعلبة (Foie - Gras) ثم يسأل :
- هلا أصبنا حظاً من طعام ؟
- حسن . كما تشاء .
- يحاول الرحالة أن يتلطف مع الطفل الذى تعود إليه شيئاً فشيئاً سعادته قبل أن يقول «أجل ياسيدى لنا جميعا شعر أحمر حتى أبى» ، ويحكى

الرحالة للطفل أنه لا يذهب إلى سرقسطة وأنه سوف يقوم بجولة في إقليم القرية ، كما يقص عليه أيضا من أى مكان هو وما اسمه وعدد إخوته . وعندما يحدثه عن ابن عم له بعينه حول ويقطن مالقة ويدعى خينارو لا يملك الطفل نفسه من الضحك . بعد ذلك يقص عليه أشياء عن الحرب فيستمع إليه الطفل فى اهتمام وشغف وقد اتسعت حدقاته .

- هل أصابوك بأى عيار نارى ؟

صار الرحالة والطفل صديقين حميمين ويطول الحديث بينهما حتى إذا ما وصلا إلى الطريق المؤدى إلى إيريبال (Imépal) ودعه الطفل قائلاً :
- على أن أعود أدرأجى ، فأمرى تلزمنى بأن أكون فى الدارفى ساعة العصر .. علاوة على أنها لاتحب أن أتى حتى هنا ، ولطالما حذرتنى من ذلك .

يمد المسافر يده إلى الطفل الذى يتجنبها .

- يدى ليست نظيفة ياسيدى .

- هيا لاتكن أحمق ، قيم بهم ذلك ؟

ينظر الطفل إلى الأرض .

- كل ماهنالك أنى أمضى كل الوقت وإصبعى فى منخارى .

- وما أهمية ذلك ؟ لقد رأيتك . أنا أيضا أحيانا أدخل إصبعى فى

منخارى ، ما لذ ذلك الإحساس أليس كذلك ؟

- بلى ياسيدى ، إحساس لذيد .

يجد الرحالة فى سيره ويبقى الطفل على حافة الطريق ناظرا إليه . ينظر المسافر خلفه ويودعه الطفل ملوحا بيديه . فى وهج الشمس يسطع شعره كأنه من نار ، فللطفل شعر جميل وضاء ساحر ولكنه يعتقد عكس ذلك .

أرماندو مونديخر لويث

طفل عنده فضول

له شعر أحمر بلون الفلفل الأحمر

(جف البرتقال

واصفر الليمون .

يبكى البطيخ

ويضحك الشامام) .

أرماندو مونديخر لويث

واقف في الشمس

وتتوهج فروة رأسه

كما يتوقد قلبه .

ويضيء في نظرتة

الأمل شيئاً فشيئاً .

لون شعره أحمر

بلون الفلفل الأحمر .

بعد أن يمشى قليلاً ، يجلس الرحالة ليصيب شيئاً من الطعام في

منخفض على مقربة من حقل زيتون .

يشرب بعد ذلك جرعة من النبيذ ويفرد بطانيته ويتمدد لينام القيلولة

تحت شجرة . من حين لآخر تمر في الطريق دراجة أوسيارة حكومية .

عن بعد ، يغنى راعي غنم جالس تحت زيتونة وتتكوم الشياها بلا حراك

يقتلها الحر . يشاهد الرحالة المستلقى على بطانيته عن كثب حياة الحشرات التى تندفع فى سرعة من مكان إلى مكان ثم تتوقف فجأة وهى تحرك قرونها الطويلة الدقيقة فى سمك الشعرة فى إيقاع منتظم .

الريف أخضر وبديع النظام ، تنبت الزهور البرية الصغيرة - الخشخاش الأحمر والأقحوان الأبيض وزهور الحرشف الزرقاء والأزوار المذهبة لنبات الزر الذهبى - على حافتى الطريق بعيدا عن الحقول . تمر بعض الفتيات اللائى يزين قبعاتهن الخوصية العريضة بأعصان من القنطريون ، ويلبسن مآزر من القماش المنقوش ، ويسرن فى خفة ورشاقة وملاحة كأنهن إناث الياخور .

يشاهدن الرحالة وهن يغبن عن بصره ثم يغلق عينيه فهو يفضل النعاس وفى ذاكرته آخر شعور سار مر به : لقلاق يطير أو طفل يغطس فى ماء أسن بجدول ، أو نحلة تنهل من إحدى زهور الشوك ، أو امرأة صغيرة تسير فى مطلع الصيف وذراعاها عاريان وشعرها مسترسل على كتفها .

ويفكر الرحالة ، الذى عاد مرة أخرى إلى الطريق بعد أن تجدد نشاطه ، فى أشياء كان قد أهملها طيلة أعوام ويحس وكان تياراً من الهواء نفع قلبه خفة .

وما إن يصل إلى تاراثينا (Taracena) حتى يملأ زمزميته بالنبيذ الأبيض .

فى أرض بلون الأرض
نضج طفح جلدى .

تحت شمس تاراينا

تتعلق الحياة بخيط.

ليس فى تاراينا نبيذ أحمر نبيل كدم الحيوانات ولا معطر وعتيق
كتاريخ أسرة رهيبة . وليس فى تاراينا فندق ولانزل ، بل ثمة حانة رطبة
نظيفة رشت أرضيتها الترابية بالماء لتوها . وللقائمة على أمر الحانة صبية
مجتهدة فى العاشرة من عمرها تستيقظ وحدها ساعة القيلولة لتذهب
إلى المدرسة .

وتاراينا قرية من الطوب اللبن ذات لون سنجابى فاتح ، لون رمادى
وتبدو مغطاه بالتراب ، تراب دقيق جدا ورقيق كترب الكتب الراقدة طيلة
أعوام على الرّف دون أن يمسه أويضايقها أحد . ويتذكر الرحالة تاراينا
خاوية على عروشها فلا يرى مخلوقا . ويلعب طفل فى حر الرابعة مساء
ببعض نوى المشمش بلا أدنى رغبة فى اللعب ، وتصطلى عربة تجرها
البغال بنار الشمس وسط ميدان صغير ، وينقر بعض الدجاج أكواما من
الروث ، وتتوهج كالجليد بعض القمصان المغسولة بعناية والمتيبسة
الخشنة كأنها من الكرتون .

يتحدث الرحالة مع صاحبه الحانة

- هل فى القرية ماء ياسيدتى ؟

- نعم ياسيدى ، ماء كثير .. وطيب . لدينا هنا نفس ماء العاصمة
وبأية كميات نحتاجها .

يخرج الرحالة مرة أخرى إلى الطريق . ولما كان هذا أول أيام رحلته
فهو يحس بساقيه مكدودتين ومتثاقلتين . تطل المرأة من الباب لتودعه .

- وداعا وليحالفك الحظ . أذهاب إلى سرقسطة ؟

- وداعا ياسيدي وشكرا لك . لا ، أؤكد لك أنى غير ذاهب إلى سرقسطة .

يفكر الرحالة فى أمر الوداع بين رجال الطريق ويراه توديع أناس لن يعاود رؤيتهم أبدا فكلمة وداعا أو ليحالفك الحظ تقولها الفلاحة أو امرأة الحانة أو الغسالة أو سائسة البغال أوراعية الغنم هو وداع إلى الأبد .. إلى نهاية العمر ، وهو وداع - دون أن ندرى - مفعم بالألم : كلمة وداعا فليحالفك الحظ . تبذل فيها الروح والحواس الخمس .

على بعد نصف فرسخ إلى الأمام وعندما يتفرع طريق مؤد إلى تورتولا (Tortola) وفونتانار (Fontanar) ، يلحق الرحالة بعربة كارو . علم الرحالة فيما بعد - فى ثيفونتس (Cifuentes) ، القرية التى تعلم فيها أشياء كثيرة - أن أهل تورتولا يسمون أعراب القرية وأن أهل فونتانار يسمون Troncheros (من فلق يفلق فالى) لأنهم فى إحدى المرات وضعوا فلقة كربن بدلا من عين تمثال سان ماتياس قديس القرية .

تأخذ سائق العربة من حين إلى حين سنة من نوم فيخرج البغلان إحدى عجلات العربة لتمر فوق الحجر المكوم على حافة الطريق فيستيقظ السائق ويقذعهما بالسباب ويعيد العربة إلى نهر الطريق ثم يخلد إلى النعاس مرة أخرى .

- مساء الخير .

- ومساء قاتظ أيضا .

- أتسير على مايرام ؟

- أجل ، لا بأس به من سير ، تفضل بالركوب إن شئت .

- حسنا ، افعل إذا صممت ...

يوقف السائق البغلين ويقفز الرحالة إلى ظهر العربة . وللعربة مظلة منخفضة من الخيش تسبب حرا خانقا . يدعو الرحالة السائق إلى جرعة نبيذ .

- نبيذ طيب .

- لا بأس به . ابتعته هناك ، فى تاراثينا .

بعد ذلك يشعلان سيجارة فلا تهتز شعلة القداحه قيد أنملة . وتنقل عربة الكارو أبوابا من الخشب وسريرا من الحديد . ليس فى إمكان الرحالة أن يعدل من وضعه ، فساقاه مطويتان ورأسه الى الوراء وقد توسدت جرابه)

- إلى أين تذهب ياسيدى .

- إلى تريخويكى (Trijueque) احمل كل صباح الحطب إلى وادى الحجارة أناهب أنت بعيدا .

- لا . سأهبط فى توريخا (Torija) .

- وغدا ؟

- غدا ، لى شأن آخر .

يعمل سائق الكارو الفكر لوهلة .

- إذا ما أطول هذه المسافة سيراً على الاقدام .

- أجل ، أجل .

وسائق الكارو رجل شاب ضئيل الحجم لوحته الشمس . اسمه مارتين دياث وهو من مواليد تريخويكى . ما إن تتوطد ثقته بالرحالة حتى

يقدم له بصلا وخيزا ابيض .

- هذا مفيد للدم .

يمر فى الاتجاه المعاكس شيخ يمتطى بغلة شهباء أرجلها رفيعة
ومتنها قصير ويغطى الرجل رأسه وظهره بعباءة .

- بغلة طيبة .

- هذا مايبدو .

ومارتين ديات سائق كارو صبور ومتفائل ويرى أن كل شىء على ما
يرام دائما . . فمن تريخويكى إلى وادى الحجارة والعكس ، تعلم أن يرى
الجانب الطيب من الأشياء .

- هذان البغلان اللذان أسوسهما أصبحا متعيين قليلا ولكنهما مازالا
يقومان بالعمل على خير وجه .

ينظر مارتين إلى بغليه .

- اشتريتهما بثمان بخس ،والآن ارتفع سعرهما كثيرا فأية بغلة
اليوم تساوى ثروة .

ينظر الرحالة إلى البغلين فى سعيهما ،وحيثما يشد عنانهما فى
المطالع ويرتخى عند الهبوط كأنه يستريح ، يحرك البغلان أذنيهما فى
سيرهما فى اتساق ويسمع صوت الأجراس البرونزية الصغيرة المعلقة
فى لبيهما . يسمى مارتين طوق البغل لبيبا .

- هذه تسمى قطلانا والبغل الأمامى يسمى بنطلون .

فى بالدنوتشس (Valdenoches) يقطع الحجارون الحجارة وقد
أسودت أجسامهم فبدوا كالحطب وهم يحملون منديلا تحت الطاقية

لامتصاص العرق ويعملون فى تودة وتهالك ويقون عيونهم بصحيفة
مدنية صغيرة معقودة إلى قفاهم لعدة أشرطة . عندما تمر عربة الكارو
بهم لا يرفعون رؤوسهم . منذ ان اجتازت العربة جبال سورتوريجا (Sotorija)
وتيو نغزو (Tio Negro) وهي تسير فى طريق واسع
محاط بأشجار الدردار .

- هنا يمكننا التنفس بحق . أليس كذلك ؟

- بلي والله !

- حسنا ، كل الطريق على نفس الوتيرة حتى توريجا .

تلوح على يمين الطريق بساتين بديعة المنظر ويرتدى شيوخ
قمصانا معقودة الياقة ونطاقا حول بطونهم وسراويل من القטיפنة
الخشنة ويرتدى بعض الشباب « عفريته » زرقاء من قماش الماهون
القطنى .. على مشارف توريجا تغنى بعض النسوة بينما يقمن بغسيل
الملابس ، وعندما يرين عربة الكارو يتوقفن لحظة عن عملهن ويحيين
مرحات مبتسمات .

وتوريجا قرية تتربع اكمة .

فندق واحد

وثلاثة منازل

وأربعة بغال

وخمس سيدات

وسته أشراف

وسبع راعيات غنم .

طريق بريويغا

يمضى إلى اليمين

وفى طريق سرقسطة

تهبط صيبتان .

من هذا المدخل ، ترفل القرية فى ثوب من الجلال بقلعتها وببرج
كنيستها المربع الشكل . على حائط أحد المنازل هناك لافتة تقول : إلى
الغورا - ٢٩ كم ، إلى سرقسطة - ٢٤٨ كم . وهى لافتة باللون الأزرق
وحروفها كبيرة ومطلية باللون الأبيض ، تمكن رؤيتها جيداً وبكل
وضوح أيضاً وإن مر عليها بسرعة كبيرة فى سيارة .

فى توربخا يلقي الرحالة بنفسه من عربة الكارو أمام فندق عند
مخرج القرية . وقبل أن يودع الرحالة مارتين كان قد تناول معه كوبا من
النبيد وتحدثا عن الطقس والقمح والناس وعما يساويه زوج من البغال
وعن مدة تحمل سترة من القطيفة وعن تصنع خادومات مدريد اللواتي
لا يتميزن عن غيرهن فى أى شىء ، فهن كغيرهن من النساء وإن كن
مغرورات وكانهن كونتيسات . ويتفق الرحالة والبغال على أنه من الأفضل
عدم النظر إلى وجوههن والاقتران بفتاة من القرية معروف أصلها
وفصلها .

- أما أولئك اللاتي يذهبن الى مدريد فهن ، كما تعلم ، لاشىء يعرف
عنهن فمن الممكن أن يعدن بما يرضى الإله أو أن يحدثن جلبة كجلبة فرقة
من « المشخصات الهزليات » ويرقب الرحالة ، الجالس على مقعد من
الحجر قبالة الفندق ، مارتين دياث وهو يرحل فى طريقه الى تريخويكى
ويلهب الآن سائق العربة ، بعد أن نزع مظلة الخيش عن ظهرى بغليه
اللذين يحثان السير متشممين رائحة الحظيرة . وقبل أن تجتاز عربة

الكارو منعطفاً في الطريق ينظر الرحالة للمرة الأخيرة إلى العربة وإلى مارتين وقلطانا وينطلون الذين سيهبطون مرة أخرى بحمولة الحطب في طريقهم إلى وادي الحجارة .

يفتسل الرحالة في الدهليز ، في إجانة موضوعة على كرسي من الحفا ، يبكي طفل ليست له رغبة حقيقية في البكاء ، ويشرع الدجاج في العودة إلى الحظيرة ، ويفتش كلب هزيل في قدمي الرحالة الذي يركله بقدمه ركلة فيفر الكلب وذنبه بين ساقيه . من الواضح أنه كلب اعتاد تلقي الركلات . وتلعب طفلة مع قط لونه أبيض وأسود وتراقبها طفلة أخرى بوجه يضمم شراً دون أن تحول نظرها عنها ، ويمر حمار بمفرده في طريقه إلى الحظيرة فيدفع الباب بمخطمه ويدخل .

يتحدث الرحالة إلى امرأة الفندق .

- ما اسم هذا الفندق ؟

- ليس له اسم . تدعى أمي مارثيلينا غارثيا .

لايصيب اليأس الرحالة .

- لديكم قلعة رائعة هنا .

تنظر المرأة إلى عيني الرحالة .

- أجل ، إنها لعريقة جدا . يقولون إنها هنا منذ أيام العرب .

يمرّ شاب على متن بغلة بنية اللون :

- قفى يا خنيروسا (ياكريمة) ، هيا ياخنيروسا !

تتحدث ابنة مارثيلينا إلى الرحالة :

- ستحتسى نبيذا ؟

- أجل .

ترفع امرأة الفندق عقيرتها :

- يا بنت ، اذهبي واحضري نبذا .

تدخل الصبية المطبخ ثم تخرج وبيدها زجاجة فارغة .

فى فندق تورىخا لا يوجد نبىذ ، فهو فندق يتحتم على صبية فيه أن تذهب لإحضار النبىذ بعد أن يسأل الرحالة : تشرب نبذا ؟ ويجيب أن نعم .

- تريده أحمر أم أبيض ؟

- أحمر .

يدخل الرحالة حجرة الطعام ليصلح من شأن متاعه . على المائدة مفرش من المطاط منقوشة عليه معينات بيضاء ووردية اللون ، ويرتفع خوان حتى السقف . وعلى الحائط ثمة خريطة تضاريس لشبه جزيرة ايبيريا ونسخة ملونة للوحة « هدية العيد » لبيرز . وتعلن ساعة حائط بميداليون من الصدف موعد العشاء . وتتدلى من السقف أربع علب أسطوانية من صفيح الملبات - محيطة بالمصابيح - نما فيها نوع من النباتات المتسلق يسمى « حُب الرجل » على شكل إكليل . المصباح مطفاً .

- وماذا عن الضوء ؟

- يأتى الضوء متأخراً .

يتناول الرحالة عشاءه على ضوء قنديل زيت . فاصوليا خضراء بسجق الخنزير وعجة بطاطس بالبصل ولحم ماعز متيبس كأنه الصخر ثم كوب لين الماعز .

وعندما يأتى تيار الضوء - بعد أن دمست الظلام - يحمرك سلك
المصباح قليلا وكأنه جمرة متقدة*. ويبدو النبات المتسلق واللمبة معا
كأنهما يراعاة .

- عندما يأتى التيار جيدا بكل شدته قبل الفجر ينير كأنه الشمس ،
سترى ذلك بعينيك .

وامرأة الفندق تبتسم عندما تتكلم فهي امرأة بشوش تفيض طيبة .
يصعد الرحالة إلى مخدعه . الفراش حديدي وكبير ورائع وعليه مرتبة
وثيرة من القش .

يترك الرحالة ضوء المصباح مشعلا ويخلع عنه ثيابه فى الظلام .
قبيل الفجر يشتد الضوء وينتشر فى الحجرة شعاع معتم - يصلح
لتحميض الصور الفوتوغرافية - تصعب معه القراءة .

يرفع شاب عقيرته بغناء يستحيل صراخا عاليا ويزعق على نحو
مزعج يسمع عن بعد :

إذا بحثت عن عروس فى ترويل (Teruel)

ابحث عن أجنبية

وأعلم أنهن يصرعن صبأ

نساء هذه الأرض .

تحيط امرأة الفندق المسافر علما وهى تقدم له طعام الإفطار :

- ذلك الذى غنى عند الفجر هو أذى . يغنى على طريقة أهل إقليم
أرجون. لقد مضى ربحا من الزمن فى سرقسطة فى الخدمة العسكرية

والتصق به الكثير من أسلوب ارجون . له صوت جميل . أليس كذلك ؟

- هذا ما أعتقد .

ما يزال الوقت مبكراً عندما يعود الرحالة ثانية إلى الطريق . يميل الصباح إلى البرودة وتبدو السماء ملبدة بالغيوم . إذا ما تقدم النهار وأشرقت الشمس ستختفى هذه الغيوم ويسخن الهواء . بعد قليل سير . يأخذ الطريق في التمعج قليلاً . ناحية الشمال ترى تريخويكى ، من حيث قد يكون مارتين دياث قد خرج ببغليه . لا ترى شجرة واحدة . يمر رجل كالفارس على بغلة كبيرة .

- صباح الخير .

- صباح الخير بفضل من الله . أذهب إلى بريويغا يا سيدى ؟

- نعم يا سيدى ، أنا ذاهب إلى هناك .

- مازال أمامك إنذار طريق طويل . لو كنت على بغلة غير هذه لحملت

عنك زادك .

- لك جزيل الشكر . ما عسانا أن نفعل .. على أنى لست متعباً بعد . ولكنك كنت ستسير على نحو أفضل . بيد أنى لا أجرؤ على أن أحمل عنك زادك على ظهر هذه البغلة ، فهى بغلة غير هينة ، هى بغلة « نصف يونانية » عندما يفيض بها وتعاودها النوبة تأخذ فى الرفس وما من أحد يستطيع كبح جماحها ، ولك أن تتخيل مقدار ما قرعتها . مع ذلك كأن شيئاً لم يحدث .

يواصل الرحالة طريقه وزاده على ظهره . بعد كل ساعة من السير ، بعد كل فرسخ ، يجلس على حاقة الطريق ليأخذ جرعة من النبيذ ويدخن سيجار ويستريح برهة . فى الحقول ، يحرث الفلاحون الأرض بمحراث

تجره البغال . يشرع سرب من الحمام البرى فى الطيران على بعد
عشرين خطوة من الرحالة وتمر حافلتان مكتظتان بالركاب ، وسط
زوبعة من الغبار ، وتسيران إحداهما وراء الأخرى وعلى مقربة منها .

على مسافة ما يزيد على فرسخ واحد من تورخا ، تلوح اشجار
السنديان متفرقة أولاً ثم على هيئة بقع فى الأرض فيما بعد . فى السهل ،
سير راعى غنم إثر نعاجه بسفح رابيه . ولا تسمع سوى شقشقة
سنونو وغناء القنبر ، بعيد ذلك ، ترى منازل فوينتس يتوسطها برج
كنيسة .

وتقع فوينتس القرية (Fuentes de la Alcarria) على يمين
ريق. تشتد كثافة غابة السنديان ويفوح الريف بعبير فواح ويرشف
حل الرحيق فى جذوع الشوك المليئة بالازهار البيضاء .

بتول مستحية كتة الشعر هى

زهرة الزعرور الشائك

وراهب محتجب هى

كل زهرة زعتر .

عصافير محلقة هى

زهرة الجولق .

ودم مفزع هو

كل رتم .

جواد جامح هى

زهرة الزامور .

وصبية عارية
فى كل لاوندة .
مائة ذئب تحميك
يازهرة اللادن
كمائة حمل هي
ريحانة داوود .

ينظر أرنبان الى الرحالة لحظة وهما جالسان على ذنبيهما يحركان
أذنيهما ، ثم يفران فى لمح البصر ليختبئا خلف بعض الأحجار . ويحلق
عقاب دائريا على مقربة من المكان . تمر امرأة على حمار بالرحالة الذى
يحييها . أما المرأة فلا تنظر إليه ولا تجيبه . وهى امرأة صغيرة السن
شاحبة حسناء ، تتشع بالسواد وعلى رأسها منديل ولها عينان سوداوان
عميقتان .

ينظر الرحالة وراءه ، وتسير المرأة ساكنه مسلّمة نفسها لخيب الحمار
القوى الجلد . ربما فكر من يراها فى أنها جثة بلا رفيق ، وأنها تذهب
وحدها ، فى الطريق الى القبر . لتدفن نفسها .

ويحتسى الرحالة جرعة من النبيذ على غير ما موعده ليعزى نفسه ثم
يشق طريقه ليجلس تحت شجرة الى جانب اسوار قصر إيبارا الواقع على
حافة الطريق .

وقصر إيبارا بيت كبير شبه متهدم وله حديقة مهجورة ساحرة تبدو
كأنها راقص من الصفوة متعب ومريض يتنفس هواء الفلاحين الشافى
وتختنق الحديقة بالأعشاب الضارة . تنعس شاة شدت الى حبل وقد
استلقت فى الشمس تجتر طعامها ، ويمرح جحش كثيف الشعر رافساً

الهواء كالمجنون . وتستوى بين الأغصان المتشابكة شجرة صنوبر ياباني
سامقة رشيقة مليئة بالوقار والملاحة والعظمة كأنها شريف مهزوم هرم
بالأمس كان متعجرفاً واليوم يستدين من الخدم .

على بعد فرسخ آخر تنتهي الغابة وتعود الحقول . ترى بعض البرك
ويندب شيخ حظه إلى الرحالة .

- بالطبع يا سيدي ، لقد أمطرت السماء بأفراط . أتعلم ياسيدي ؟
يحتاج إقليم القرية إلى ما يعوزه من ماء فقط ، لا أكثر ولا أقل .

يفكر الرحالة في أن ذلك الرجل - متكلماً على هذا النحو - إنما هو
معرض دائماً لأن يصيب فيما يقول .

يرسم الطريق منحني عظيم ، وبعد اجتياز المفترق يجد الرحلة نفسة
قبالة بريويغا التي تقبع داخل منخفض . يتفرع من المفترق طريقان
بالإضافة إلى الطريق الذي يسلكه الرحالة طريق اليسار المؤدى الى اوتاندى
(Utande) وطريق اليمين الذاهب الى الغورا عائداً مرة ثانية الى طريق
السيارات .

نزولاً إلى بريويغا ثمة طريق جانبي يختصر المسافة اختصاراً
لموساً ، يأخذ الرحالة هذا الطريق المليء بالحجارة والذي يبدو كمجرى
لنهير جف . على بعد ليس بالكبير من منتصف الطريق ، يلاقى راعياً
صغيراً يجلس على حجر إلى جانب سياج متهدم لم تبق منه إلا أجزاء ،
فهو لا يستر شيئاً .

- أيها الصبي . ما اسم هذا المنخفض ؟

الطفل لا يجيب .

- ألا تسمع ؟ إنى أحدثك . أقول ما اسم هذا المنخفض ؟

يتحرج الطفل ولا يعرف ماذا يفعل . ينظر إلى قدمي الرحالة ويحمر وجهه حتى أذنيه ويمسح على ركبته بيديه ، ثم يهم بالإجابة في صوت رفيع :

- ليس له اسم .

ويعطى الرحالة الطفل بعض النقود . لم يرد الطفل أخذها في أول الأمر .

من هذا الشعب تبدو بريويغا بمظهر بديع بأسوارها وبمصنع نسيجها العتيق الضخم المستدير كأنه حلبة مصارعة . يجرى نهر التاخونيا بضفافه الوارفة وبغوطته الخضراء خلف القرية .

ولون بريويغا رصاصى مائل للزرقة كدخان سيجار وتبدو مدينة قديمة كثيرة الحجارة ، ببيوت بديعة المعمار وأشجار ضخمة . لقد تغير الديكور فجأة ويبدو وكأن ستاراً قد أزيح عنها .

بريوينا

(Brihuega)

من كان فى الحقيقه يعرف اسم الشعب هو رجل متلعثم اللسان يعد
ابصالا لشتلها فى ظل دردارة الى جانب خان « لاس إرس » يضحك عندما
يسأله الرحالة :

- إن له اسماً قبيحا ، قدر ذلك يا سيدى .

يعطيه الرحالة سيحارة .

- ولكن الاسم يمكن أن يقال ، أليس كذلك ؟

يتكلم الرجل بصعوبة شديدة . بين تلعثمه وضحكه لا يفهم له شىء
تقريباً .

- فى منتصف الطريق ثمة عين تسمى عين كينيونيروس (Fuente
de Quineros)

- وهل يسمى الطريق هكذا ؟

- لا يا سيدى . لا يسمى هكذا .

لا يتمالك الرجل نفسه من الضحك وتقول له امرأة يتعلق طفلها
بصدرها :

- هيا ، إنك لتبدو أبله . ألا يريد أن يعرف الاسم ؟ قله إذأ !

ولم يكن ينقص المرأة إلا أن تقول :

- ما لهذا يسأل كثيرا ، فليحل عليه الشقاء !

لم تقل ذلك ، ولكن من المحتمل أنها فكرت فيه ، يشيح الرجل المتلعم بوجهه ثم يقرر أن يتكلم .

- هذا الطريق يسمى ، أو نسميه نحن ، طريق عين الغائط .

يفكر الرحالة فى أن الرجل صاحب الأبصال انما هو متلعم رقيق . فالامر لم يكن يستدعى كل هذا الاحتياط . يبتعد الرحالة وما يزال الرجل يضحك وهو يقطع بسكين رهيبه سيقان البصل الغضة التى سيشتلها فى المساء .

يدخل الرحالة الخان لياكل . قبل الغداء ، يضع قدميه فى ماء ساخن وملح فيزول الأم تماما . تجلس فى حجرة الطعام فتاة قروية برفقة أمها .

- صباح الخير بالهناء والشفاء !

- صباح الخير ياسيدى ، تفضل

تشرب الأنسة نبيذا ابيض وهى صببية شاحبة يداها بديعتا الرسم وشعرها كسكتنائى مصفف فى تمويجات صغيرة تغطى جزءاً من جبهتها .. تسعل قليلاً .

على الحائط ثمة ساعة تعمل بثقل وعصفور كنارى اسمه « ماوريثيو » وضع فى قفص من السلك المذهب وثلاث صور ملونة باللوان فاقعة عنيفة فى أطر معدنية . إحداهما تمثل لوحة « الحراب » (لبلانكث) والثانية لوحة « السكارى » والثالثة « العائلة المقدسة والعصفور الصغير » . ثمة قطن

يترصدان أى شىء يؤكل . أحدهما أشقر ويسمى روبيو (أشقر)
والآخر أسمر ويسمى مورو (هربى) . ليس هناك شك فى أن من
اسمهما بهذين الاسمين كان رجلا ذا خيال .

تقدم الطعام للرحالة صبية حسناء غنجة ترتدى ثوبا رقيقا من القطن .

- ما اسمك ؟

- مرثيديتس ، فى خدمتك . ولكن يدعوننى مرشى .

- اسم جميل جدا .

- لا ياسيدى . هو اسم قبيح جدا .

- ما عمرك .

- سبعة عشر .

- ما زلت صغيرة جدا .

- لا ياسيدى . لم أعد صغيرة .

- لك خطيب؟

- هيه .. ما أشد فضولك !

تحمر الصبية خجلا وتفر الى المطبخ . عندما تعود ، تعود جادة جدا
وتغير صحن الرحالة دون أن تنظر اليه .

- ما بك ؟

- لا شىء .

تساعد مرشى خادمة قروية فظة لا يعرف الرحالة اسمها . لون
مفرش المائدة المطفى أصفر ذهب رونقه وتنسلت أطرافه . ثمة رزنامة

حائط عليها صورة فتاة تعلن عن ماركة أنيسون . والفتاة شقراء سوداء العينين ترتدى ثوبا أخضر يكشف عن منكبيها وتعقص شعرها وتثبتته بمشط للزينة شديد اللمعان يلفت النظر من الوهلة الأولى ، مطلى ببودرة القضة المستخدمة فى عمل نجوم اعياد الميلاد وتسد نافذة حجرة الطعام قضبان من الحديد - كانت فى الأصل لشرفة - وقد رقدت على جانبها .

يخرج الرحالة الى الشارع بعد أن ينتهى من تناول طعامه ، كان قد فكر فى أن يستريح قليلا بعد أن يتناول قهوته ، بيد أن سيدين دخلا حجرة الطعام ، وأفرغا ما فى جعبته من صبر فأثر النهوض من مكانه والخروج من هناك .

الى جانب الخان ، يكتشف الرحالة بوابة لاكادنا التى ينفذ منها الى القرية . البوابة مشكاة بها تمثال للعرزاء « الطاهرة » تحتها شاهد من رخام أبيض كتب عليه : ١٧١٠ - ١٩١٠ - مدينة بريويغا . فى الذكرى المئوية الثانية لاقتحامها الشهير . وأسفل الشاهد الأول ، شاهد ثان من الحجارة يفهم منه جزء فقط . ينسخ الرحالة الحروف فى ورقة . ويتأخر كثيرا لأنه أحيانا ما يخطأ ، فيحيط به الناس . يشعر الرحالة بغبطة شديدة فى أن يؤخذ على أنه من العلماء .

كان نص الشاهد على هذا النحو تقريبا :

« من هذه البوابة تم التقدم والاقترام فى يوم ٩ ديسمبر ١٧١٠ . بواسطة قوات جلالة الامبراطور فيليبى الخامس ضد القوات الانجليزية والهولندية ... عن هذه المدينة التى صرعت عن بكرة أبيها . »

صحيح أن الشاهد لم ينسخ جيدا ، بيد أنه لا ينقص حرف واحد . هذه هى الحقيقة . فكل الحروف واضحة وضوحا كافيا ، تقريبا ولكن ثمة ايضا شيئا فى نهايته ليس على نفس القدر من الوضوح . بالنسبة للرحالة

على الاقل ، (فى النص الإسباني) فى السطر قبل الأخير - فى وسط
السطر على وجه التحديد - ثمة فراغ يبدو أنه أثر مدفع^(١) .

يدخل الرحالة من البوابة ويهيم على وجهه بعض الوقت فى المدينة .
خارج البوابة ، يمتد طريق محفوف بالأشجار ظليل بديع . تجلس بعض
الفتيات على مقعد يتجاذن أطراف الحديث . يضحكن فى صخب ويضربن
على ركبهن ثم يقمن بعد قليل ويذهبن الى عين ماء ليشربن .

يقوم عدد من الرجال بجز صوف بعض النعاج فى حظيرة على
الطريق . داخل أسوار المدينة . يقصون الفروة كاملة فتبدو كأنها قميص
ملوث بالشحم ، وتبدو النعاج عرايا نحيفات بطينات قبيحات . ينظر
الأطفال اليها نظرات غير بريئة ويتسمون فى صمت .

ان جز صوف النعاج فى حظيرة دافئة ، بل شديدة الحرارة ، تعبق
برائحة حريفة نفاذة هو مشهد يبعث بلا شك على الخدر ودعوة موروثه
للإثارة لا يعرف لها سبب تساهم فى ائتياج الصبية عندما يختلط الهياج
بالقسوة فى لحظة فوران دم غامضة وفاضة .

ساعة العصر . هناك لحظة يرى فيها الرحالة كل النساء جميلات .
يجلس على حجر وينظر إلى جماعة من ثمانى أو عشر بنات يغسلن وقد
امتلا قلبه بالشجن .

يغرق الرحالة فى فكره ويشرد ذهنه وتعمر ذاكرته غمامات ناعمة
موحية بينما ينفض الغبار عن أبيات منعشة من الأغاني الشعبية :

أمآه ، إنهن الصبايا

صبايا هذه المدينة

(١) من النص الإسباني حذفتم جملة واحدة هى : (... بين حرف T وحرف V ..) .

فى الماء الجارى

يفسلن قمصانهن

قمصانهن يأمنه

أمنه ، إنهن الصبایا

تشمر الفتیات عن أذرعهن ، تغنى احداهن جزءاً من ناثویلا^(١) وتغنى أخرى كویلیه قدیما مضت علیه اربع أو خمس سنوات ، ولكن إحداهن لا تغنى وتضع بعض الزهور الزرقاء فى شعرها الكستنائى . وهى لا ترى جیدا ، بید أنهاكذا ، من ظهرها ، تبو مرشى فتاة الخان .
- اسمى قبیح جدا .. لم أعد صغيرة ...

فى الیوم التالى ، عندما یعود مرة أخرى الى الطریق ، یفكر الرحالة فیما مضى ویغلق عینیة لوهلة لیحس بدقات قلبه ، یشرب ثور أشقر هرم قرناه طویلان ووجهه مدبب كأنه فارس من طلیطله لامسا صفحة الماء بمخطمه الأشیب فى حوض بعین ماء قریبة من المغسل ، عندما ینتهى من شربه یرفع رأسه ویمر فى تواضع وحكمة خلف النسوة . من یره یحسبه خصیا مخلصا ملولا متعقلا یحرس الحریم الصاخب كإصباح الصبح .

یتابع الرحالة سعى حیوان المستسلم بنظرة ملؤها الحیره . فأحیانا یقف واجما أمام الاشیاء التى یصعب فهمهما . ثمة كلبان یتحابان بعناد وعنق وقلة حیاء فى نار الشمس المحرقة وتمر دجاجة تحیط بها افراخ صفراء كحبات الذرة ، ویطل كبش من ناصیة احد الشوارع رافعاً رأسه وفى عینیة نظرة عمیقة وقرونه شامخة متحدية . ینظر الرحالة الى

(١) نوع فنى إسبانی شبيه بالابريت .

الغاسلات للمرة الاخيرة ثم ينهض ويرحل فهو رجل نسجت حياته من التنازلات.

يجوس فى عدة حارات ثم يتوقف على أعتاب منزل ليدخن سيجارة مع رجل شيخ .

- تبدو القرية رائعة .

- أه لو رأيتها قبل اختراع الطائرات .

يتحدث أهل بريويغا عن قيل وبعدها اختراع الطائرات مثلما يتحدث المسيحيون عن ما قبل وبعد الطوفان .

- وهى ليست الآن ولا حتى ظللا لما كانت .

يمعن الشيخ فى التفكير مائلا للثرثاء ، وينظر الرحالة الى حجارة الشوارع تاركا الكلمات تتداعى على فترات وكأنه فى شروود .

- الصبايا الحسنوات ، كما أرى ...

- لا تلقى بالا الى هذا ، فهن لايساوين ريبالا واحدا . أه لو عرفت امهاتهن .

يزفر الشيخ الذى ترتعش رأسه زفرة ويغير مجرى الحديث .

- لقد كان هنا ، فى هذا المكان ، عندما بدأ الإيطاليون فى الفرار ، أتعلم ذلك ؟

- أجل ، أعلمه .

- لقد كان حدثا جللا .

ينهض ويدخل الدار ثم يعود بعد برهة متكئا على عصاه فى تناقل .

- معذرة ... نهبت لأرى كيف يسير قدر الطعام .

يجلس ثانية ويضع يده على خده .

- فى سنى لا يصلح الانسان لعمل شىء . لم نعد نصلح إلا للمراقبة
قدر الطعام . لقد صرت طلالا . ولكن ، أه لو كنت رأيتنى فى شبابى !

يفكر الرحالة فى أن ما يحدث لصديقه الشيخ إنما يحدث أيضا لبريويغا
التي كان يجب رؤيتها فى مجدها . ولكل الناس والأشياء . ينهض الرحالة
فهو لا يفضل الحزن اليوم ، يودع الشيخ ويمضى إلى الأمام هابطا المنحدر .
يمر بأروقة من عروق خشبية تعمل عمل الأعمدة ومن بلاط من حجارة
كأسس لها ، ويبلغ كشكا صغيرا ومزركشا ومتنوعا وجذابا فيبدو كأنما
أقامته مصلحة السياحة .

وصاحبه شيخ عرك الحياة . أحول ، ربعة . خبيث ، يعرف من أين
تؤكل الكتف ، يتحدث فى كل شىء وعن أى شىء وينتحل صفة الشاعر
والرجل المثقف .

- حللت أهلا فى حانوت «بورتينو»

- شكرا لك .

- إنه حانوت شديد الجدية .

- لا أشك فى ذلك .

يتحدث الرجل مفرطا فى حركاته وصارخا ومجعدا سحنته ورافعا
ذراعيه .

- أنا شيشرون الشهير .. أنا أعلم الناس ..

- عظيم .

- كلهم هنا جهلة «ويفتقرون إلى التمييز»

- حسن .. ثمة رجال من كل نوع'.

- لاياسيدى ، ليس ثمة أحد ، فكلهم هنا جهلة ولايميزون .

- مهلا .. مهلا .

- اسمى خوليو باكس وإن سمونى بورتنيو . كل شخص فى هذه القرية له لقب ولامفر لأحد من ذلك (١) فهنا ، لانحرم أنفسنا شيئاً .

- نعم ، هذا ما أراه .

- ويسموننا مهرجين وسكارى ، أهالى القرى المجاورة .

يطلق الرجل هذه الجمل فى سرعة شديدة كما لو كان يلقى درسا يحفظه عن ظهر قلب فهو يتوقف فقط ليتنفس أو يضحك ضحكة أرنب ، وهو يعى أن عليه أن « يرض» كلماته على أى نحو أتفقت أو لم تتفق وسياق الحديث .

- ولكن أتدرى ماهو رأى الذى أقوله ؟ أقول لك إننا هذه هى سنة الحياة .

يبتسم الرجل ثم يخطوخطوة إلى الخلف ويتخذ وضع ممثل درامى مدروساً جيداً :

فى هذا الكوخ المتواضع

سترى كل شىء

(١) كلمة باكس تعنى أبقار . خوليو باكس يسرد قائمة من الألقاب الطريفة نورد هنا بعضها مترجمة مطروش : الثعالب . النخلة . المحروق . الحساء . الماء . البيضة . الجدى المدخن .

من الحذاء والسلة

إلى أجمل وأنفس الخرف .

يفيض خوليو باكس متعة ويتعكس هذا على وجهة ، فصبر الرحالة
فى حقيقة الأمر شىء يندر وجوده .

- أيعجبك هذا الشعر ؟

- نعم بالطبع ، إنه لرائع .

- حسن ، لقد نظمته وحدى ، دون مساعدة من أحد . وأحفظ الكثير ،
لقد نظمت اشعاراً أخرى .

- حقيقة ؟

- نعم ياسيدى . أم تعتقد أننى جاهل ؟

- أنا ؟ .. حسبى الله ...

يعاود الرجل الابتسام .

- أجل ياسيدى .. نظمت اشعاراً أخرى ، أكثر من هذه بكثير ، وهى
مسجلة عندى ، فبدون نظام لا يمكننا أن نصل إلى أى مكان . اليس كذلك
ياسيدى .

- بالطبع .

- استمع إنأ إلى هذه الابيات فى السيدة مريم العذراء أم السيد المسيح .

- هات ما عندك .

يعود بورتينو فيغير من هيئته :

بريوفا سعيدة الطالع

منذ أن وجدت

لسمرايتها

أقامت معيدا .

يهم الرحالة بالكلام لكن بائع « الروبايكيا » يقاطعه بإشارة كأنما يقول له : انتظر قليلا ، لحظة واحدة فقط . ثم يرفع ذراعيه ثانية قائلا :

ثلاثة معالم توجد

فى هذه المدينة الكبيرة :

عذارانا والقديس فيليبى

وبوابة الكوثاغون

عندما يفرغ منه يهرش رأسه بعنف .

- أسمعت ؟

- أجل ، أجل .

يدخل الرحالة الحانوت وفى إثره خوليو باكس ، يعج الحانوت بالبيضائع فيبدو محلا لعربى : مصابيح من الصينى وأوانى لللبصق من الخزف النفيس ومحابر من زجاج و عملات فضية ولوحات وكتب ولوازم ركوب الخيل وقناديل برونزية وجلود خراف وريش طاووس وصحاف بديعة موصلة وسترات قديمة ومجموعة طوابع أرجنتينية وصندوقان يزن كل منهما نصف كيلو جرام ، بهما عملات ألمانية ترجع إلى حرب ١٩١٤ . يتحدث خوليو باكس الشهير ببورتينو إلى الرحالة .:

- أهوا أنت للقراءة ؟

- نعم . أحيانا أقرأ شيئا .

- إذا سوف أهديك كتابين أعتز بهما . هما قديمان جدا .. كتابان للحكماء . لا أريد شيئاً مقابلهما : « افعل الخير ولا تنظر فيمن » . سوف أهديهما لك . هما كتابان في الصحة ، فأنت شاحب قليلاً .

بينما يبحث بائع « الروبا بيكيا » عن الكتابين يجول الرحالة الحوائط ببصره .

- ههما .

- ألف شكر .

يبحث الرحالة عن بزيتتين في جيبه

- لا أتقاضى مقابلاً عن هذه الأشياء .

- معذرة ، هاتان البزيتتان ليستا ثمننا للكتابين فأنا أعلم أنهما يساويان أكثر منهما . هاتان البزيتتان هدية منى .

- هذا إذا شيء آخر .

يحفظ خوليو باكس بزيتتيه ويتصفح الرحالة الكتابين . عنوان الأول : « دراسة عملية في مرض النقطة » مؤرخ في ١٧٩١ في الكلاه (Alcala) في مكتب الجامعة الملكية وكان قد كتبه بالفرنسية « أم . كوست » أقدم مستشار وطبيب في حرس صاحب الجلالة ملك بروسيا ، وترجمه إلى الإسبانية دون رامون توميه أستاذ الجراحة في البلاط الذي أضاف إليه بحثاً في المياه المعدنية . وعنوان الكتاب الثاني « الطب العلاجي والطمث » كتبه « أم لى روى » مستشار الجراحة في باريس . على غلافه بيتان من الشعر يقولان : « من يحملني في جيبه يحمل الطبيب معه » وهو مؤرخ في بالنتيا في ١٨٢٨ في مكتب خوسيه فرير دى أورغا ، ويحمل صورة مؤلفه وسط إكليل بخط إنجليزى يقول : « أم لى روى داعية الطب العلاجي » .

- ماذا ؟ أيعجبك الكتيبان ؟

- نعم ، يبدوان شيقين .

- كنت احتفظ بهما منتظرا من يستأهلهما . اتركهما لى لوقعهما لك .
ينظر الرحالة إلى خوليو باكس الذى يكشف عن أسنان حادة خضراء
دقيقة بينما يوقع الكتابين بكل عناية ، كان يبتسم .

- لقد قمت بمرافقة جميع زوار المدينة من المشاهير .

- وهل يأتى الكثير منهم ؟

- أجل ياسيدى ، ومهمون جدا . فمنذ أعوام طويلة ، قبل اختراع
الطائرات ، رافقت ملك فرنسا فى زيارة للبلدة .

- أه ، حقيقة ؟

- نعم ياسيدى ، كما تسمع كان ذلك فى زيارة سرية ، شديدة
السرية ، لم يعلم بها مخلوق .

- يخفض خوليو باكس من صوته ويقوس حاجبيه ويكلم الرحالة فى
أذنه .

- كان ذلك عندما انتخب دون نيثيتو الكلاه ثامورا^(١) . سأقول لك
شيئا ربما لا تعلمه ، شيئا لم يتخيله أحد تقريبا . ولكن ياسيدى كانك لم
تسمع شيئا ، هه ؟

- حسن !

- لقد كان هو ودون نيثيتو ابنى عمى .

(١) انتخبه البرلمان الإسبانى رئيساً للجمهورية الثانية ، فى العاشر من
ديسمبر من عام ١٩٣١ .

- غير معقول !

- أجل ياسيدى . وطبعاً لما كان دون نيثيتو جمهورياً فإن الملك اضطر إلى القيام برحلته متخفياً حتى يتجنب القيل والقال . كل هذا أعلمه من مصادر موثوق بها .

يعود خوليو باكس فيرفع صوته بعد أن يغمز للرحالة بعينه .

- كان رجلاً يستملح الحديث معه ، ذكياً طويل القامة ، حسن الهندام ، يلفت الانتباه من الوهلة الأولى إلى أنه ملك أجنبى .

- عظيم .

- وقال لى عند رحيله : خذ يا بورثيو ، كى تسكر ليلة « فى صحتى » ، ثم نفحنى قطعتين من نوات خمس بزيتات . وكان سكرى فى تلك الليلة مشهوداً ، أقسم لك .

- أصدقك بالطبع .

- كان يكفى النظر إليه حتى تدرك أنه رجل مقتدر .

يقلب خوليو باكس عينيه كأنما يتنكر .

- وعندما أسمعته قصة عذرائنا والقديس فيليبى وبوابة الكوثاغون أخرج حافظه نقوده ودفن لى ببيزيتة أخرى .

يفكر الرحالة فى أنه من العسير عليه منافسة جاهل فرنسا . ويواصل خوليو باكس إلقاء خطابه جاهلاً ما يفكر فيه الرحالة :

أكلت عجوز مرة

مايربو على مائة سردينة

وظلت طوال الليل

- تستخرج شوكا من المستقيم .
- هذا أيضا قاله ملك فرنسا ؟
- لا ياسيدى ، هذا لا . هذا ألفته أنا بعد ذلك .
- ألفته أنت ؟
- نعم ياسيدى ، أقسم لك . لقد انتشر بين الناس وبسرعة الضوء لكن مؤلفه الأول كنت أنا ، خادمك المتواضع .
- يتفوه خوليو باكس بالكلمات الأخيرة ناظرا إلى الأرض .
- من المؤسف أنك لم تسمعه هذا ، لأنه ربما تفحك بزيتة أخرى .
- من المؤكد ...
- بدل بورتينو من نبرة صوته كأنه يريد ربط كلامه بشيء نسيه .
- ألم تنتبه ياسيدى إلى أنني قلت المستقيم فى ذلك البيت ؟
- بلى ، بلى ، لقد انتبهت إلى ذلك .
- يغرق بائع الروبائيكيا فى الفكر ويتحدث كأنه يتحدث إلى نفسه ، دون اكتراث .
- ما أجمل الذكرى التى أحملها لدون لويس !
- كان يسمى دون لويس ؟
- أجل ياسيدى : دون لويس كابيتو .
- يسأل بعد ذلك بينما يسير ويداه فى جيبي بنظونه رافعا منكبيه :
- أتعلم ياسيدى أى شيء عما آل إليه أمره ؟
- لا ، ولا كلمة واحدة ، فمعلوماتى عما يحدث فى فرنسا قليلة .

- هذا نفس ما يحدث لى ...
- يطل خوليو باكس من الباب وينظر الى الطريق .
- ما أعظمه من فارس ! ما كان يبدو فرنسيا !
- خوليو باكس الذى له هيئة محرض فى حرب عصابات يمسك جبهته
بيديه كتينور أويرا .
- يبعث مظهره على سخرية مروعة ، سخرية تملأ النفس رهبة .
- ما أعظمه من شخصية تاريخية !
- ينظر شزرا وبشء من المداراة الى الرحالة الذى لا يحرك ساكنا عندما
يسمع عبارة «شخصية تاريخية» .
- تعاود بائع الروبائيكيا ابتسامته :
- لا علينا ! مافات فات ! وكلنا سواء أمام الموت !
- حقيقة !
- فلتحدث إنأ عن شىء آخر . ألم تر حديقة المصنع بعد ؟
- نعم ، لم أرها بعد .
- لاتدع رؤيتها إنأ . إنها لشىء جليل . ستأكد من ذلك عند زيارتها .
- يودع الرحالة خوليو باكس شاندا على يديه أمام كويى نبيذ فى حانة .
وعند الخروج من هناك صرخ خوليو باكس بصوت مدو كأنه الرعد .:
- ماريا .. ماريا !
- وعندما أطلت ماريا من إحدى الحارات ، قال لها :
- راقبى المحل فإنى ناهب مع هذا السيد بعض الوقت .

فى الحانة كان الرحالة قد حاول إقناع خوليو باكس بالعدول عن نيته .
- شكرا جزىلا . ولكن لا تكلف نفسك .. أستطيع الذهاب إلى الحديقة
جيدا وحدى فانا أميل أحيانا - لا أدرى كيف أشرحه لك - إلى العزلة .
مكث خوليو باكس ينسب نظره فى طاولة الحانة ، وبصوت بائس
معتم ومفعم بالمرارة وبهدوء شديد اقتصر على قوله :
- كما تشاء .
نفحه الرحالة - الذى يدرك الأمور متأخراً كالعادة - بزيتين أخريين
فأخذهما خوليو باكس دون أن يحرك ساكنا تقريبا .
- شكرا جزىلا .
- عفوا . معذرة فلسنت عاهل فرنسا .
ترك خوليو باكس كلماته تتهاوى وكوب النبيذ الأبيض فى يده :
- مثل ذاك الرجل ثمة قليل .
يواصل الرحالة طريقه وفى ذاكرته خوليو باكس يقرم بحركات
يهلوانية .
بورتنيو بائع الروبايكيما
فى بريويغا
بطل الحديث الفصيح
وقلب ذهبى فى جسد فقير .
شسشرون المخلص .
وصديق ملك فرنسا .

(الذاكرة أريج)

خلف عيني قار)

في العلبة الصفيح

تُعد قطع النقود

- بذرة العيش الرغيد -

وقملة متسللة

ضعيفة وصفراء

تقرصك في قصك .

أه لو علم ملك فرنسا

صاحب زهور الزنبق

أه لو علم بذلك دون لويس .

تجلس عجوز بنظارة على أريكة خشبية ، تحت ظل الأروقة تشغل
جوربا . بجوارها طفل يبكي مرُّ البكاء ويركل الأرض بقدميه . يبدو أنه
ضرب ضربا مبرحا لتوه .

- ما به ؟

- لا شيء ، إنه محروور .

يأكل شيخ سردينا مدخنا وكسرة خبز . يجلس أسفل عمود ويجانبه
حمار . والحمار هرم أيضا ولون شعره رصاصي وعيناه بائستان
متأملتان . في عنقه الكثيف الشعر ثمة عقرة دامية أكلها الذباب ، وبدا
صلبه مقوسا تحت البرذعة بفعل السنين . يرفع الشيخ رأسه عندما يلحظ

مرور الرحالة الذى يقرئه السلام .

- مساء الخير !

- بفضل من الله !

وشعر الشيخ أبيض وعيناه زرقاوان لا معتان . يبدو منكسرا وتغطيه
أسمال قليلة بأثسة لكن ليست هيئة الشحاذ . يفكر الرحالة فى هؤلاء
الفقراء الذين ليست لهم هيئة المتسولين ، هؤلاء الفقراء الذين يمكن أن
يقال عنهم إنهم عظماء ذلوا ، عزيزة نفوسهم ، صابرون على الشقاء
كأبطال فى محنة .

يا صبايا توربيلنيا

يا صبايا فوينثميان

شريف مهزوم

يهلك باحثا عن خبز .

عيناه زرقاوان

وهيئته عتيقة .

يجوب الطرق

كأنه القائد .

وينظر كالحمامة

وكالباشق أيضا .

وهو رقيق مع من يسأله

أنوف مع من يعطيه .

فى السماء طائر أبو طيط

يفر من القطامى

ياصبايا توريبلىنيا

ياصبايا فونثيمان !

يداخل الرحالة فضول إزاء الشيخ صاحب الحمار . فهو لم يتعود رؤية شحاذين عيونهم زرقاء ولهم هيئة الفرسان القدامى ، ضاربين فى الأرض من مكان إلى مكان دون أن ينال منهم التعب أبدا ، يأكلون اليوم سرديننا مدخنا فى بريويغنا وربما صاموا البارحة فى غابة السنديان أو تغذوا لحما مقددا وحساء الثوم فى بيابثيوسا (Villaviciosa) أو فى بالدسات (Valdesaz) ، أما أمر غد فهم - كطير السماء - يسلمونه لله .

- عابر سبيل ؟

- أجل ياسيدى .

- أذهب إلى بعيد ؟

- حسن ! لست فى عجلة من أمرى .

يرفع الشيخ يده إلى جهته ليتكلم مع الرحالة .

- أنت أيضا تسافر ؟

- نعم ، سأخرج فى الليل .

- إن شاء الله ...

- أجل ، إن شاء الله !

للوصول إلى حديقة المصنع المحاطة بأسوار من الطين المدببة الحواف
يجب اجتياز طريق ضيق مهجور شديد الانحدار . يدخل الرحالة فينبع
كلب لدخوله . يخرج رجل .

- تريد رؤية الحدائق ؟

يبدو رجلا تعود على مثل هذه الزيارات ، فهذا السؤال يبدو أنه سألته
مرات عديدة طوال حياته . ويقول الحدائق بدلا من الحديقة لأن كلمة
حديقة - المفرد - هي أكثر ابتذالا ، كما يفسح الرجل السبيل للرحالة
كلما مرا تحت مظلة . والمصنع لا يصنع شيئا . فى أزمان أخرى ، حسبما
يعتقد الرحالة أنه فهم ، كان يصنع قماشاً .

ترقد سيارة ليموزين مغطاة بالتراب ويخيوط العنكبوت فى عنبر
كبير وخاو .

يعبر الرحالة والحارس فناء مربعا مغطى بالبلاط له هيئة نيروبه
أشجار عليق وقراص فى الأركان وحوض ماء أخضر يقطر فقاقيع ومحاط
بزنابق . ينقر بعض الحمام الأرض . خارج الغناء ، ترعى عدة أبقار
سويسرية فى ظل أشجار فاكهة فى مرج أحيط بسياج ويطل على المدينة
كأنه شرفة . للأبقار قرون قصيرة غير حادة ونظرة تائهة حمقاء غير
مدققة .

للخروج من الفناء إلى الحديقة لابد من اجتياز باب صغير . والحديقة
فتانة المظهر .

قال الحق خوليو باكس : إنها لحديقة جليلة . ويعرض الحارس حديقته
فى خيلاء .

- هذه هى الصوبة . تفضل ياسيدى !

و الرحالة لا يدخلها ، فله تحفظ على الصويات .

-والآن بسبب كل هذه المياه لا يمكن الحفاظ على نظافة الممرات
فالحشائش تنمو فى كل مكان .

ويجهل الحارس أن الحديقة تبدو أكثر سحراً بنمو بعض الحشائش
فى طرقاتها .

- انظر ياسيدى ، ما أروع هذا الغار .

وحديقة المصنع حديقة رومانسية ، حديقة للموت فى الصبا ، من
العشق أو اليأس أو السل أو الحنين .

تنمو شجرة السرو كالعابد المتبتل إلى جانب شجرة لوز مليحة تبدو
كأنها فتاة ماتت ، ووراء أشجار البقس المشذبة تزدهر ورود أريحا البرية.
ويشحب نبات سلطان الجبل الزائف أمام الريحان دائم الخضرة . يتجول
الرحالة بين أشجار العصل وليس فى مقدوره تجنب أن يعمر ذهنه شعر
شيلى الناعم الرخيم معا : النبىذ .. العسل .. برعم قمرى .. النسرين ...

شرفة عالية

شرفة عالية

تتشع بالبقس .

بالبقس تتشع .

وعلى السرو يغنى

يغرد شحرور جريح

جريح الحب .

علي السرو .

وتعيق وردة
أريحا .
هواء صاف
أحمر اللون .

تصعد مرتعشة
نسرين رشيقة .
تصعد مرتعشة
نسرين رشيقة .

ريحانة تطففت
وسوسن ملول .
ريحان قطع
فى ألف شكل .

يمسح الرحالة جبهته بيده ويفرك عينيه .

- فى هذه البركة ، قبل اختراع الطائرات ، كانت ثمة أسماك ملونة دائما .

الرحالة لا يستمع إليه . يطل من الشرفة العالية المزينة بإكليل من زهور الشاي وينظر إلى الوادى . يجرى نهر التاخونيا عن بعد ، وعلى ضفتيه الطريق الذى سيسلكه الرحالة عند غروب الشمس ، صعودا مع النهر ، وراء ماسيغوسو (Masegoso) أو هبوطا معه ، وراء طريق السيارات المؤدى الى بوديا (Budia) .

من نهر التناخونيا إلى نهر الشيفونتس

يهبط الرحالة إلى النهر عند غروب الشمس . إلى اليسار - صعودا مع نهر التاخونيا - يمضى طريق ماسيغوسو وثيفونتس ، وإلى اليمين - فى عكس الاتجاه - طريق أرثشيا (Archilla) ويوديا . لا يستقر على رأى ، فيجلس على حافة الطريق ، ظهره للمقرية ووجه للنهر ، لينتظر لحظة اتخاذ القرار .يشعر الرحالة بالراحة والدعة مستلقيا على جرابه . فالجراب يغطى كل ظهره حتى الكليتين وهو بمثابة مسند عال مريح وخشن بعض الشيء .

تخترق السماء ، من ناحية الغرب ، بعض الغيوم الحمراء الواضحة المعالم والبديعة الرسم بطيئة طويلة كأنها الثعابين .يقولون إن الغيوم التى لها لون النار عند الغروب إنما تنبئ بقيظ فى اليوم التالى . ويجرى النهر مسرعا محدثا صوتا خفيفا بين الحقول . وعلى ضفتية تسمع شقشقة عصافير المساء ، ونقيق آخر ضفادع المساء .

الجو منعش وهو جالس على حافة الطريق فى ظل دربارة بعد يوم قانظ قطع فيه عدة فراسخ وتفقد على قدميه أرجاء بلدة كبيرة اكتشفها لتوه . يمر يعسوب فى طيرانه المتقطع وتمضى صبيتان تركبان حمارا وديعا خصيا يسير فى بطء ورأسه ينحنى إلى الامام . تمضيان ملتصقتين

مقههتين تزين شعرهما زهرة خشخاش ، ويعود فلاحون قضا النهار
فى العمل - فى طمر الفاصوليا وإزالة الحشائش عن الأبصال ورى الخس
- ادراجهم إلى بريويغا وفؤوسهم على اكتافهم وقد لوحث الشمس
والهواء بشرتهم وتفصدت جباههم العريقة النبيلة عرقا .

أمام الرحالة ، على ضفة النهر ، تحصد امرأة أعواد الأسل بسكين .
كانت قد أتت ويدها طفلة صغيرة حافية القدمين عارية الذراعين على
رأسها الأشقر الأشعث شريط بنفسجى كبير كأنه خفاش . عندما تصل
حافة النهر وبينما تكوم أمها أعواد الأسل تقطف الطفلة زنباق فى صمت
حتى تتجمع لديها كومة فى نفس حجمها ، كومة لن تقدر على حملها .
يطن النحل فى خلايا العسل فى منحل على بعد عشر خطوات من
الرحالة ويعبق الريف بعبير عميق نفاذ متباعد شبه جارح .

يتناقل جفنا الرحالة وربما نعس للحظة نعاساً خفيفاً دون أن يدري،
فهو بلا حراك وفى راحة ودون أن يشعر بساقيه ، فى نفس الوضع الذى
اتخذه عند الجلوس . والطقس ليس بالبارد ولا بالحر . يمر كلب صيد
أرانب بحافة الطريق . يشعل الرحالة سيجارا ابتاعه فى وادى الحجارة .
يتصاعد الدخان بطيئاً مستقيماً مشكلاً أحياناً دوائر زرقاء شاحبة . ينظر
قط أشقر إلى الرحالة من فوق شجرة . لا تتحرك نسمة هواء واحدة
بأسفل المنحدر ، يقدم رجل فى سكينة وشرود يسير إثر حماره .
ويمضى الرجل كفارس مهزوم انتصب رأسه وتششت نظرتة وتاهت .

له عينان زرقاوان ، والحمار عجوز رصاصى الشعر تقوس ظهره ، إذا
دققنا النظر رأينا فى عنقه المخملى عقرة دامية أسودت من الذباب .

ينتفض قلب المسافر بين ضلوعه ويصيح عندما يقترب الشيخ :

- هيه !

فيوقف الشيخ الذى يعرفه فى الحال الحمار .

- قف ياغوريون (ياغصفور) ...

يتوقف الحمار ويجلس الشيخ إلى جانب الرحالة .

- فى النهاية ، صار المساء لطيفا ...

- أجل .

يقدم الرحالة علبة تبغه للشيخ .

- سيجارة ؟

- هذا لايرفض أبدا

يلف الشيخ سيجارة سميكة غزيرة ، « سيجارة صديق » ، ويفعل ذلك

فى أناة كأنما يستمتع به . يصمت حينما وبينما يطفىء اللهب الطويل

البرتقالى اللون بأصبعيه يسأل شبه متحير :

- أذهب أنت إلى ثيفونتس ؟

- لا أعرف .. لم أبدا السير إلا منذ وقت قصير ، وأنت ؟ أذهب إلى

هناك ؟

- أجل ، سأمر عليها فثيفونتس بلدة طيبة وواسعة الثراء .

- هذا ما قيل لى .

- إنها الحقيقة فعلا . ألم تذهب إلى ثيفونتس من قبل ؟

- نعم ، لم أذهب إلى هناك قط .

- فلتات معى إنن ، فأهلها يكرمون مثوى من يضربون فى الأرض
على شاكلتنا .

لفظ الشيخ كلماته هذه ناظراً إلى الأفق فى شرود .

- تبغ طيب !

- أجل ، لأبأس به وخاصة إذا ما داخلت الإنسان الرغبة فى التدخين .

يتناول الصديقان رشفة نبيذ من الزمزية ثم ينهضان ويحمل الحمار
« غوريون » زاد المسافر . يواصلان السير حتى يحل الظلام الذى سرعان
ما حل ثم يأكلان شطيرة خبز ويبحثان عن مكان لقضاء الليل، مع آخر
أضواء المساء المرتعشة .

على العشب وأسفل جدار الأجر لمطحن دقيق ، يقترش الصديقان
بطانية الرحالة القطنية الرمادية اللون ، ويلتحفان بطانية الشيخ الصوفية
المنقوشة بالمربعات ويستلقيان على ظهرهما جنباً إلى جنب وقلنسوتاهما
على رأسيهما اللذين يتوسدان جراب الرحالة وخرج الشيخ . تفوح من
الشيخ رائحة مغذية دافئة لزجة باعثة للنعاس . والحمار « غوريون » -
يساقيه الأماميتين المشدودتين إلى وثاق - ساكن كجثة هامدة وغير عابىء
كتمثال تائه بين ظلال الحديقة .

نم أيها الحمار الوديع

فقد حانت ساعة النوم .

وها أنت قد أكلت

زهرة الخشخاش .

وها أنت قد شربت

رقء الماء المنعزل .

نم أيها الحمار الوديع

فها قد حانت الساعة .

يغنى صرار الليل وينبح كلب بلاهتياج نباحا طويلا فاترا كأنه يؤدي مهمة أزلية .

تمر فى الطريق عربة تجرها بغلة وشيقة تعدو فتسمع أجراسها ،
ويسمع من بعيد أيضاً جلجل ملول لبقرة وديعة ، ويصفر ضفدع فى
أرض بور على الجانب الآخر من الطريق . ويروح الرحالة فى نوم عميق
حتى مطلع الفجر ، عندما تصيح الديكة للمرة الثانية . يوقظه الشيخ
لامسا ووجهه ببعض الحشائش .

- صباح الخير .

-صباح الخير .

- أنشرع فى السير ؟

- حسن !

يعتدل الشيخ واقفا فينشر ذراعيه ثم يطوى بطانيته بعناية ويضعها
على متن الحمار ثم يتأهب .

- أسير دائماً بعد الثانية عشرة ، مع صباح الديك . يبدو السير أفضل
فى هذه الساعة ، ألا تعتقد ذلك ؟ وأقول إن النهار خلق للسير والمساء
للمشاهدة والليل للنوم .

- بلى ، هذا ما أرى .

مازال الظلام دامسا والجو باردا والسير هينا .

- ولما كنا قد نمنا ليلة تحت بطانية واحدة وتبادلنا الدفء فيما بيننا
فإننا فى الحقيقة أصبحنا صديقين ، ألا يبدو لك ذلك ؟

ويتوقف الشيخ عن السير عندما يقول :

- هذا قولى على الأقل ...

يفكر الرحالة فى أنه على صواب ولكنه لايرد .

- لأنه .. هل أنت على يقين من الموعد الذى سنفترق فيه ؟

- لا .

ياكل الصديقان فى سيرهما شيئا من الخبز والسجق ويمضى الرحالة
فى صمت مستمعا إلى الشيخ الذى يغنى فى صوت خفيض أغنية بهيجة
وأدعة مطلعها :

« يا صبايا توربيلنيا يا صبايا فرنثيمايان » ، يتقدمهما الحمار
(غوريون) عدة خطوات مارجحا أذنيه فى إيقاع منتظم . أحيانا يتوقف
ويقتلع بأسنانه الضخمة حرشفا أو خشخاشاً من حافة الطريق .

يتحدث الرحالة والشيخ عن الحمار .

- كدابة يعتبر هرما مثلى كإنسان ، ولكن الله وحده يعلم أيننا
سيقضى أولا ؟

يفلسف الشيخ فى الظلام ، ويطأنيته على كتفيه ، بصوته المستتر
ومظهره الشبحى .

- وهو دائما يمضى طليقا ، كما تراه الآن ، يتقدمنى بعدة خطوات .
يضغط الشيخ على ذراع الرحالة .

- وفى الليلة التى أسقط فيها وأترك فى الطريق كالكلب سأقول له
بكل ما يتبقى لى من قوة : « هيا ياغوريون » وسيواصل غوريون سيره
حتى يجيء النهار ويلقاه أحدهم . وربما امتد به العمر أربع أو خمس
سنوات أخرى .

يصمت الشيخ هنيهة ثم يتغير صوته الذى تعتريه الآن نبرات حادة
غريبة .

- خيبت بالبرذعة ورقة تقول : « خذنى فلقد مات صاحبى » كتبها لى
صيدلى فى تنبرون (Tenebrón) بالقرب من ثيوداد رود
ريغو (Ciudad Rodrigo) قبل الحرب بعامين .

يصمت كلاهما برهة أخرى ثم يطلق الشيخ ضحكة .

- فلنشرب جرعة نبيذ ، فما زلت حتى الآن قوياً ولا لأحد بعد أن يقرأ
ما كتبه الصيدلى .

- عسى أن يتحقق ما تقول !

- وأن تعيش لتراه يتحقق !

يخرج كلب من بين البساتين مزجرا ، يرميه الشيخ بالحجارة فيفر ،
كانت له رأس كبير وكان يحمل طوقا من المسامير أصدر صوتا قويا -
كصوت ارتطام حدوة فرس برصيف - عندما أصابه حجر الشيخ .

- هاهى قرية باروييدرو (Barriopedro) ، على ضفاف ذلك الجدول

أحياناً يكون به شيء من ماء .. ويببدو الآن أن به ماء كثيراً وهو ينبع من
أراض تسمى بيار (Villar) .

بعده ذلك بقليل - بالقرب من الطريق - بلدربويو
:(Valderrebollo)

- من هنا يبدأ طريق يؤدي إلى أوليادال اكستريمو
(Olmeda Del Extremo).

ينبلج الفجر وتبيض السماء فوق أكام قاحلة ذات لون
ترابي مائل للحمرة تقع وراء بالدربويو تسمى تلك الأكام لاس موراس
(Las Morras) .

كان الصديقان قد سارا لفترة طويلة - مدة ثلاث أو أربع ساعات -
عندما يمران بما سيفوشو .

- في رأيي أن نبقى هنا ، لست متعجلاً .

- أتعبت ؟

- لا ، لم أتعب . إن شئت وصلنا حتى ثيفونتس .

وما سيفوسو بلدة كبيرة ومغبرة وبلون القضة وتنعكس منها أشعة
ذهبية في ضوء النهار وعندها مفترق . يذهب الرجال إلى الحقول
ومحراثهم الذي تجره البغال من أمامهم وكلبهم الصغير وراءهم ،
وتمضى بعض النسوة يجرن المنجل على الأرض في طريقهن للعمل في
البساتين .

يعبر الحمار غوريون والشيخ والرحالة جسراً فوق نهر التاخونيا .
يجول صياد بضفة النهر . البلدة على جانب والشمس من ورائها ، في

حوالى الثامنة والنصف أو التاسعة يتوقف الصديقان فى الطريق على مرمى البصر من مورانتشل (Moranchel).

تقع مورانتشل على يسار طريق ثيفونتس ، على بعد مائتى خطوة من طريق السيارات وهى قرية بنية اللون لم تخلق لتحاط بالحقول الخضراء . يجلس الشيخ على حافة الطريق ويستلقى الرحالة على ظهره ويطل النظر إلى بعض الغيوم الهيفاء كأنها حمام تسبح فى الفضاء . ويمر طائر اللقلق على ارتفاع منخفض وبمنقاره شعبان . وترتفع طيور الحجل من بين أشجار الزعتر . ثمة راعى غنم مراهق وشاة فى ظل شجرة نبق بزورها البيضاء العطرة كأزهار البرتقال .

· ينعس الرحالة راقدا على ظهره ويفكر فى سفر العهد القديم .

تمر شاحنة صاخبة وقذرة وقبيحة الهيئة مثيرة زوبعة من التراب . يخيط الشيخ زرا فى سبترته عندما يقف الرحالة على قدميه .

يدخل الصديقان ثيفونتس عند الظهر ، وهى بلدة بديعة بهيجة كثيرة الماء ، بنسائها ذوات العيون السوداء العميقة ومحالها التجارية المتنوعة التى تعرض أسرة مطلية بالنيكل وأطقم صوانى المشروبات الكحولية وستة أقداح وصينية مرآة وصور منعشة وممتعة ومن مائة لون تمثل « العشاء المقدس » وطاحونة هواء من التيرول محاطة بقمم شامخة مغطاه بالجليد .

ويلوح مرتفع لا أورككا (المشنقة) خلف البلدة ، وهى سلسلة جبلية تنتهى بهضبة منبسطة كالطبق . قديما ، حسبما يشرح للرحالة ، قبل أن ت اخترع مصارعة الثيران لتروح عن البسطاء من الناس الذين يرغبون فقط فى رؤية قليل من الدم ، كانت هذه الهضبة تستخدم فى تنفيذ أحكام الإعدام . يفكر الرحالة فى أن المكان لا بأس به من اختيار ، فلمرتفع لا أورككا منظر رائع بلا شك . ويفكر أيضا فى أن من المؤسف ألا ترتفع هناك منصة الإعدام ، كانت ستبدو بديعة .

على مشارف القرية - بالقرب من النهر - يوجد مصنع برانع «لاراتا»
(الفأر) ، وهى ورشة صغيرة مزركشة وساحرة ، ورشة من العصور
الوسطى متفائلة ومفتوحة على جميع الاتجاهات كالسوق . والفأر هو
«فليكس ماركولايينا» ، رجل ذو مرهبة ان استطاع ان يستغل لقبه وأن
«يعصره» كأنه ليمونة .

والفأر ، فى حانوته ومحاطا بالبراناع مختلفة الأنواع والأحجام ، هو
توصل القرية وداره هى السجل العام لذهاب وإياب الناس ، فالتاس إن أجلا
أو عاجلا ينتهون دائما إلى مصنع برانع «الفأر» طلباً لرباط سرج أو ظهر
برذعة ، أو بحثاً عن ثفر أو فرش تحتانى أو قطعة قماش بالية . يهدى
الرحالة لبدا إلى الحمار غوريون . ويحرك الحمار غوريون ذنبه فى عصبية
كأنه طفل صغير بينما يلبسونه اللبد .

يسير الصديقان فى الغوطة ، فى اتجاه معاكس للقرية . سوف يأكلان
ويتمددان بعد ذلك ساعة القيلولة عند عين البيوخو (البرغووث) بمائها
الرائق السلسبيل الشهير فى كل الناحية .

تمتد البساتين الوارفة فيما بين عين البيوخو والنهر . ترى أسوار
قلعة متهدمة اعلى الطريق المؤدى إلى غارغولس (Gargoles) . ويجهل
الشيخ من صاحبها كما تجهله امرأة تعبر الطريق .

- هى الآن ملك لسيدة ماركيزة .

فى الثالثة مساء ، يعود الرحالة أدراجه ويدخل ثيفونتس ، فله هناك
صديق يبنى زيارته . يمكث الشيخ عند عين البيوخو ليهضم طعامه فى
الظل .

- نلتقى فيما بعد .

- حسن .

يسمى صديق الرحالة الذى يقطن البلدة «أريبيتيتا» . و«أريبيتيتا» شريف خشن فى العقد الخامس أو السادس من عمره ، قوى البنية ، يفيض صحة ، له ستة أبناء تجاوزوا مرحلة الصبا ، وبيت بثلاث شرفات على طراز فرنسى يدخله الهواء كأنه صالة فى مسرح أوبرا .

- ثيفونتس هى عاصمة إقليم القرية . إذا كان الإقليم يمتاز بعسله الأبيض فإن أكثر العسل ينتج فى ناحية نيفونتس : فى «أوتر» (Huétar) و «روغيا» (Ruguiilla) و«أوتيرو» (Otero) و«كارا سكوسا» (Carrascosa) .

يتحدث صديق الرحالة بفخر عن ثيفونتس . بينما يتنزهان فى البلدة ، يحدثه عن تاريخها ، يحاط الرحالة علما بأن القلعة شيدها دون خوان مانويل ، وأن الكنيسة أقامتها عشيقة الفونسو الحكيم^(١) واسمها دونيا مايور . يتذكر الرحالة على نحو غامض أنه قرأ فى كتاب منذ أعوام أن دون خوان مانويل يلقب بالمعربد الكدر . أما دونيا مايور فهو لم يسمع عنها فى حياته . يرى العديد من الأبواب المزينة بمسامير الحديد جميلة الشكل رائعة الرسم لها مقابض ومقارع من الحديد الأسود ورسمت عيون مفاتيح الأبواب على شكل قلب أو سباتى أو زهرة الزنبق أو الأرابيسك .

وينبع نهر الثيفونتس أسفل نفس بيوت البلدة ، ثم لا يلبث أن يحرك طاحونة هواء ، فالبلدة قائمة على عين ماء . ونهر الثيفونتس هو نهر مبكر النضج ، فحجمه ضئيل وماءه كثير ويصل حتى تريو (Trillo) ليصب فى نهر التاجه ، وطوله لا يزيد على أكثر من فرسخين ولكنه غزير بالماء ، أغزر بكثير بلا شك من العديد من الأنهار الطويلة . وفى المسافة القصيرة التى يقطعها يمضى نهر الثيفونتس بين مسقط ماء

(١) ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ - ١٢٨٤) ، شهد عهده حركة تأليف وترجمة واسعة .

وأخر ، فيثب فوق الحجارة فى خمسين موضعاً على الأقل .

فى بركة طاحونة الهواء ، يسبح سرب من البط خفيف الظل له ريشة واحدة مقوسة وبراقة فى ذيله وهى ريشة رصاصية اللون لها بريق أخضر وأزرق وأحمر . ينعس بعضه على ضفه النهر واقفاً أو راقداً ورأسه تحت جناحه . ويتجول البعض الآخر ويصيح ويتحرك فى كل اتجاه كأنهم بحارة . يطل الرحالة من حاجز الجسر على بعد يزيد قليلاً عن المتر ويلقى للبط بكسرات الخبز فيسرع البط فى لقائه ضاربا الهواء بأجنحته على سطح الماء . أما البط الذى كان ينعس على الشاطئ فما يلبث أن يصحو ويتمطى وينظر لحظة ثم يشرع فى السباحة هو أيضا .

يحكى أربيتيتا للرحالة وهما يتجولان بالبلدة أسطورة عين الذهب الواقعة فى سفح تل «سان كريستوبال» على الطريق المؤدى إلى «روغيا» . وهى حكاية أدبية ، ربما كانت أدبية جداً ، حكاية العرب والنصارى وحببات لب ذهبية كبيرة فى حجم الكريز ، أميرات عذارى جميلات بيضاوات غامضات كأنهن القمر . وللحكاية طعم الخرافات الجميل . يفكر الرحالة على غير عادته فى رواة العصور الوسطى الذين كانوا يعزفون على العود فى أفنية الحريم فى القصور ثم كانوا يجلدون فى أفنية السادة إذا ما تحوهم حتى تسيل دماؤهم .

يقرا طفل مريض جالس فى الشمس اقاصيص «أندرسون» فى كتاب جميل الطبع مغلف بالكرتون ، عندما يمر به الرحالة يرفع رأسه وينظر إليه . وهو طفل أسمر اللون وشعره مجعد وعيناه سوداوان وبشرته شاحبة وابتسامته مليحة وبها مرارة سابقة لأوانها . نصفه الأسفل معوق وهو جالس دائماً على كرسيه الخيزرانى الصغير . يسأله الرحالة كيف حاله ويرد الطفل أنه بخير وأنه شاكر جداً وأنه يستمتع بالشمس قليلاً .

تطل أمه من الباب . يطلب الرحالة قليلاً من الماء فتدعوه أم الطفل للدخول وتقدم له كوب نبيذ ثم تشرح له أن الطفل اسمه بكييتو وأن ولادته كانت عادية فقد ولد نبيها ، بيد أنه سرعان ما تبدل حاله وأصيب بشلل الأطفال ، وأنه في بعض الليالي بعد أن يحمل إلى فراشه يسمع نحيبه الخفيض الطويل حتى تأخذه سنة من النوم ، وتشرح له أيضاً أنها تحاول أن تتقبل الوضع أحسن تقبل حيث أن هذا المرض ما هو إلا امتحان أعدّه لها الرب ليبلوها .

- رزقنا بولدين آخرين توفى كلاهما في صباهما . يقول زوجي : أى إثم ارتكبناه ؟ للمرأة عينان بائستان . تطيل النظر إلى الحائط ثم تضيف :

- فى النهاية ، هذا هو مصيرى المحتوم !

عندما يصل الرحالة إلى الميدان يرى صديقه الشيخ وحمارة «غوريون» إلى جانبه .

- كنت أنتظرك .

- حقيقة ؟

- نعم ياسيدى ، كنت أريد أن أودعك .

- ولكن إلى أين يا سيدى ؟

- ما أنا براحل . سأمكث هنا . لقد ظهر لى عمل «حقيير» وسأبقى هنا ثلاثة أو أربعة أيام حتى أنتهى منه . أعتقد أنك ستواصل سيرك .

يتحير الرحالة فى أمره لوهلة .

- نعم ، سأواصل السير .. فلم يظهر لى أى عمل .

يتكلم الشيخ متصنعاً شرود الذهن ومحملقاً فى رأس «غوريون» كأنما يريد أن يقلل من أهمية كلماته .

- إن الأجر لزهيد لكن - إن شئت - فنصفه لك ...

- لا ، أشكرك على أية حال ، ليس هذا بزمن طيب يحتمل أن نتقاسم
الرزق .

- لك ما شئت .

تلتقى نظرنا الرحالة والشيخ .

- فى أى اتجاه تذهب ؟

- كنت أفكر فى الهبوط حتى «تريو» .

يتصافحان ويودع كل منهما الآخر .

يجلس الشيخ ثانية بعد أن كان قد نهض واقفا بينما يشق الرحالة
طريقه - ولم لانقولها ؟ - محزوننا بحارة تسير فيها سيدتان تحملان
جرتيهما على ذراعيهما . ويسأله صديقه القاطن فى ثيفونتس :

- من هذا ؟

فيجيب الرحالة :

- صديق قديم لى ، رجل طيب اسمه «خيسوس» ، من ناحية
«بلمونتي» ، من قرية تسمى «بياسكوسا» (Villaescusa) وحالة مثل حالى
الآن ، تذهبه المقادير وتعيده .

فى كنيسة السلبادور ثمة منبر من الخشب أو المرمر قد يساوى ثروة
، فهو منبر ذو قيمة كبيرة . به أشكال نحتت بعناية فائقة وينتهى من
أسفل برأس لها وجهان مثل رأس يانوس (١) وإن اختلفت عنها فى أن
الوجهين لرجل وامرأة . ويحكى القس للرحالة آخر حكاية عن المنبر .

(١) رأس من النحت البارز بوجهين ، من مقتنيات متحف بوسطن للفنون الجميلة - المترجم .

- بعد الحرب كلفنى العثور عليه مشقة بالغة . وأخيراً وجدته فى مدريد ، فى أحد المتاحف . فى أول الأمر ، لم تكن لديهم رغبة فى إعادته ، فقد كانوا يريدون إعطائى منبراً آخر بدلاً منه . وفى أحد الأيام ، ذهبت ويرفتى أحد الجيران عنده سيارة نقل ووقفت على باب المتحف لا أتذكرح وقلت لهم : هيا أعطونى هذا المنبر فهو لى . ثم رفعته إلى السيارة ، وهو ذا أمامك .

والقس هو قس شجاع وحازم وظريف ونشيط وفخور بمنبره ، وعندما عثر عليه أحضره إلى هنا وانتهى الأمر .

وللكنيسة باب مؤد إلى فناء به عريش وبعض الشجر . والفناء يؤدي أيضاً إلى منزل القس .

- هذا أفضل لى .. إذا أردت أن أستنشق الهواء أحضر إلى هنا ولا أضطر إلى الخروج إلى الشارع إلا عند الضرورة .

وبيت القس نظيف جيد الإضاءة . أرضيته الخشبية غسلت جيداً وطلبت حوائطه بالجير . يرافق القس الرحالة حتى الباب .

ينبغى هبوط عدة سلالم لأن الأرض غير مستوية . فالباب المطل على الفناء هو فى نفس مستوى الفناء ، ولكنه فى مستوى نوافذ الطابق الأول من ناحية الشارع .

يفترقان عند الباب .

- حسن يا سيدى القس ... وداعاً تشرفت بمعرفتك .

- وداعاً يا رجل .. لا أستحق هذا كله فأنا الذى تشرفت بك .. أرجو لك التوفيق .

يبتعد الرحالة برفقة صديقه وقبل أن يصل إلى ناصية الشارع ، يلتفت

إلى الخلف ، يودعه القمس الواقف فى وسط الطريق ملوحاً بيده .
يفتش كلب فى كومة قمامة . فى أحد الأركان ، يرقد دنان من الطين
ضخمان خاويان على جنبهما فى لهيب الشمس .
- هيا بنا الآن نتناول وجبة خفيفة إن بدأ لك ذلك مناسباً . فيما بعد
نذهب إلى تلك الدار التى يسمونها المعبد اليهودى .
وكما كان متوقعا ، يبدو للرحالة مناسباً جداً أمر تناول الوجبة . فهو
جائع ، وفى بيت أرييتيتا يتناول كويماً من اللبن الدسم بلون الزيد وقطعة
خبز أبيض حشيت جيداً وطولها شبران .
بعد أن امتلأ بطنه يبدو الرحالة شاعرياً . يلاحظ هو ذلك فيحتاط
للأمر .

- أنذهب إلى المعبد اليهودى ؟

- نفعل إذا أردت .

بعد تناول الوجبة ، كان قد بدأ يفكر فى عصافير مزغردة وفراشات
رشيقات وأطفال ضالين وأباطيل من هذا القبيل . هذا ما تسببه البطون
الملانة : فهى تعمّر الذهن بأفكار لا تعدو على كونها أفكار أنسة تعلم
الناس مبادئ الكاثوليكية .

والبيعة اليهودية بيت من طابقيين نوافذه صغيرة نسبياً وبه بهو
أعمدة . فى البهو بئر ارتفعت حافته وغطيت بألواح خشبيه . ينقر بعض
الدجاج الروث ، بينما يحفر خنزير الأرض بفنطيسته مهمهما .

ينادى الصديق بصوت عال .

- ماريا .. اخرجى .. لقد جئنا لرؤية بيتك .

تخرج ربة الدار مجففة يديها فى مؤزرها .

- سترى القليل ، فهذه الدار فقيرة جداً كما ترى .

تعبّر طيور السنونو سماء الفناء سريعة كالشعاع . فهناك أوكارها ،
بين عروق خشب السقف وأسفل تيجان الأعمدة . ثمة أيضاً فى مستوى
النصف الأعلى من الحائط آثار أعشاش أخرى هوت وحدها أحد الأيام دون
أن تمسها يد إنسان .

- فى الواقع إن طيور السنونو مثل الأشخاص ، منها الذكى ومنها
الأحمق . انظر يا سيدى كيف أن أوكاراً أخرى لم تسقط .

بعد أن تشرح ربة الدار أمر أوكار طيور السنونو ، تحضر من الداخل
كرسيين كى يجلس الرحالة وصديقه . فى جو المساء المنعش ، يستطاب
الجلوس فى الأفنية والتدخين وتجاذب أطراف الحديث مع صاحبة معبد
يهودى .

- ألا تعلم يا سيدى أن هذا المكان - فى زمن غابر - كان يحتفظ
باليهود؟

- إن هذا لمبعث أسفى .. لعنة الله على قتلة المسيح ..

وكالعادة يدرك الرحالة بعد فوات الأوان أنه ارتكب خطأ . حينئذ يفكر
معزياً نفسه فى أن المرأة لا بد أنها لا تجهل أنهم فى كل المنطقة يسمون
أهل ثيفونتس - وأهالى الوبييرا (Alovera) وتاراينا وتوريخا وأوثيدا
(Uceda) - باليهود لتحقيرهم . بيد أنهم يسمون أيضاً أهل رومانكوس
(Romancos) بأنهم يحنتون القسم ، وهى والله لسبة أسوأ وأضل سبيلاً .

ويقدر الرحالة أيضاً فى أنه سواء أكان ذلك صحيحاً أم خطأ فإنها العادة
على أية حال . حينئذ ، ينهض ويتحدث عن المحصول الذى يعتبر خير

موضوع للحديث هذا العام وعن حالة الطقس وعن أنه يرى الدجاج على ما يرام وهو يقفل عائداً إلى الحظيرة مرتقياً عدة ألواح خشبية . تسترخى حمامتان أعلى كومة من الحطب ، ويدخل طفل متأبطاً بطاقة التموين .

- يا ولد ، حى هذا السيد !

- عمت مساءً يا سيدى !

ينفخ الرحالة الطفل عشرة سنتيمات متودداً إليه .

- مانا يقال يا ولد ؟

- جزيل الشكر لك يا سيدى .

يقف الطفل على مقربة شبر من الرحالة ويمعن النظر إليه وتبلغه أنفاسه . لأنفاسه رائحة عجلة صغيرة أو عجل صغير ، رائحة منعشة .

- تعرف الحروف ؟

- نعم يا سيدى .

- أى حرف هذا ؟

- حرف E .

- وهذا ؟

- حرف M .

- عظيم تعرف القواعد ؟

- لا يا سيدى ، القواعد لا أعرفها .

عودة إلى الطريق مرة أخرى ، يتبدل الضوء . فقد غربت الشمس خلف التلال وراء عين البيوخو وبدت المنازل خافتة معتمة . ربط الحمار

غوريون ، الذى ينعم اليوم بالراحة التامة ، إلى حلقة حديدية بباب منزل محركا ذنبه . عبر الباب المفتوح ، يرى فناء يقوم فيه الشيخ الذى كان الرحالة قد التقى به فى بريويغا وكان يأكل خبزا وسردينا مدخناً أسفل احد أعمدة البواكى ، بتفريغ بئر أسود : عمل حقير .

يحل الظلام بثيفوننتس، فى سرعة شديدة . يرى جزءاً من مرتفع «لاوركا» منعزلا أعلى البلدة . وكانت أجراس السلبادور فى برجها الذى قصمته قنبلة إلى نصفين - كأنه قطع بسكين - قد دعتة إلى الصلاة منذ حين .

برج قطع

بهدية إلى قسامين

والشمس تسمع

فى أجراس السلبادور .

يفكر الرحالة فى أن غدا سيكون له شأن آخر .



مع نهر الشيفوننتس حتى نهر التاجه

يخرج الرحالة فى الصباح الباكر من «ثيفونتس» ويأخذ طريق «تريو»
تاركا النهر عن يمينه وقصر «دون خوان مانويل» عن يساره .

بعد قليل سير ، تلوح قممنا «لاس تيتس دى بيانا» (ثديا بيانا)
المجدوعان ، المنعزلان فى الأفق . بعد ذلك ، عند بلوغ قمة هضبة هيئة ،
تلوح أيضا «غارغوليوس» - (Gargolillos) ببرجها المدبب ، ثم «غارغولس»
ببرجها المربع الشكل ، ويسمى البعض قرية «غارغوليوس» : «غارغولس
أعلي» ، و«غارغولس» : «غارغولس أسفل» والاثنتان تقعان على ضفاف نهر
«الثيفونتس» ، إلا أن غارغوليوس تقع بعد الانعطاف قليلا عن طريق
السيارات فى نهاية طريق بديع محفوف بالأسوار وأشجار العليق .

الجو مائل للبرودة والسير ممتع . على صفحة النهر يمتد شريط
شاحب شفاف من الضباب . تحلق طيور الزرزور والسمان ويثب طائر
العقعق ذو اللونين الأبيض والأسود من حجر إلى حجر ، بينما تصفر
قبرة فى المزارع . يهب نسيم الصباح على الحقول والهواء نقي وورضاء
وشفاف وصاف . وما أن يجتاز منعطفا حتى تختفى ثيفونتس .

يمتد الطريق بين أشجار الحور المتفرقة غير الكثيفة وتخضر بستاتين
الطماطم فيما بين الطريق والنهر .

على الجانب الآخر ، تبدو الأرض جافة خشنة بنية اللون . على الأديم القاحل ترى نعاجا بيضاء وسوداء - أو كستنائية معتمة - اختلط بعضها البعض ، وفي أراضى الرى ثمة نسوة وأطفال يحرثون الأرض .

الطريق خاو ، فلا من غاد أو راثع . ينتقل الرحالة إلى جانب بيت كبير من الحجارة يبدو مهجوراً وهو محاط ببساتين وبحديقة صغيرة . على يوابته لافتة تقول :

«ممنوع الدخول .. منزل خاص» . يجلس رجل على إحدى علامات الطريق يصلح من شأن طاولة عليها هدايا مقلدة .

- آت من ثيفونتس ؟

- نعم .

- وكيف الحال ؟

- حسن .. على ما يرام ؟

تصدر عن الرجل إيماءة عدم رضا .

- حسن ، لن أذهب ..

- لم يارجل ؟

- أجل .. ماذا تريد ياسيدي ؟ لن أستمر ، فلا أحد يصدقنى القول .

جفنا البائع عاريان فليس بهما هذب واحد ، وله قدم خشبية ربطت فى غير إحكام إلى الساق بعدة أربطة ، وفى وجهه أثر جرح بطول جبهته ، وفى إحدى عينيه سحابة سماوية اللون أو بيضاء تقريباً . وهو قصير القامة ضيق المنكبين سريع الغضب .

- لا أحد يصدقنى القول ويشعر الناس نحوى بالغيثيان . أتعرف

ياسيدى كيف يدعوننى فى وادى الحجاره ؟

- كلا .

- يسموننى الغائط .. كيف يبدو لك هذا ؟

- حسن يا رجل .. يبدو لى سيئاً ، هذا أقل ما أقول .

- هؤلاء الزاحفون على الأرض ! فليزحفوا حتى تنفصل جلودهم عن

اجسادهم ، هلاً أعطيتنى بعض التبغ لغيلونى ؟

يقدم له الرحالة علبة التبغ .

- بلى ، بكل امتنان . ها هو ذا ياسيدى .

- لم تقول بكل امتنان ؟

يتردد الرحالة قبل أن يجيب .

- لأنها الحقيقة ، هيا ، أشعل الغليون .

- حسناً يا رجل لا تتضايق . يالضيق صدور الناس ! عسى ألا تظن أنك

إذا ما أعطيتنى قليلاً من التبغ يمكنك التصرف معى على هذا النحو . اسمع

ياسيدى ، هل أنت من أرانثويكى (Aranzueque) ؟

- كلا .. لم ؟

- لا أعرف .. بدا لى أن وجهك ينم عن إنسان جائع .

ينظر الرجل إلى طاولته ويرتب قليلاً الشرائط الملونة وأوراق حُسن

الطالع وأمشاط المعدن المذهبة المصقولة البراقة كالمرآة .

- لا تباع مقشدة واحدة .

- أجل .. إن هذا الزمن سيئ .

يرفع رأسه وينظر إلى الرحالة بتمعن .

- وهل تشتكى وأنت بهذا الطول وساقاك صحيحتان ؟

يفكر الرحالة من توه في أن لهذا الرجل الذى يبيع الشرائط الملونة
طريقة محيرة فى الجدل .

- لقد سرقوا منى ثروة ضخمة ، إرثاً ..

- حقيقة ؟

- نعم يا سيدى ، أم أنك لا تصدقنى ؟

- أجل أجل ، لم لا اصدقك ؟

- حسناً ، لقد كانت ثروة نائب الملك فى بيرو . ألم تسمع عن نائب
الملك فى بيرو ؟

- بلى .. كثيراً .

- لقد ترك كل ممتلكاته لى . فعلى فراش الموت استدعى موثق العقود
وكتب فى ورقة أمامه : «أوصى أنا دون خيرونيمو بيباغس إى مارتين ،
نائب الملك فى بيرو بكل ممتلكاتى الحاضرة والمستقبلة لابن أختى
استانيسلاودى كوستكا رود يفت إى روديفت الشهير بالغائطه» . احفظها
عن ظهر قلب . وهذه الورقة محفوظة فى روما لأننى أخذت عبرة من
التجربة ولم أعد اثق إلا فى البابا . وقف البائع على قدميه ثم أكمل :

- لقد سرقوا إرثى وتركونى فى أعظم .. (١)

تأخر الرحالة قليلاً فى إدراك أنه أراد أن يقول : فى أعظم فاقة .

(١) يلغظ البائع عن طريق الخطأ كلمة ليس لها معنى - المترجم .

- ولكننى أقول : فيم يفيدهم ذلك إذا كانت الحقيقة كاملة ستظهر فى
(وادی خوسافات) (١) ؟

- حقيقة ؟

- طبعاً يا رجل ، طبعاً . إذا ما قال أهل وادی الحجاره شيئاً بليل فإنه
بالنهار كأنه لم يكن . ولكننا سنرى الحقيقة فى وادی خوسافات . اسمع ،
هلا سرتنا ؟

- حسناً ..

يسير الرجل فى صعوبة .

- إن الساق الخشبية طويلة قليلاً .. اسمع ، ألا يثقل عليك زادك ؟

- بلى ، بعض الشيء .

- ولم لا تلقى به عنك ؟

بعد ساعة ، تلوح قرية غارغولس أعلى ضفة نهر الثيفوننتس ، بعيدة
قليلاً عن طريق السيارات . ينتظر رجل بطاقيه وكوفية وامراتان شابتان
مرور الحافلة . وثلاثتهم هم كل من يلتقى بهم الرحالة من أهل
غارغوليوس . تدل سيماهم على أنهم خيرون ، وإن أسماهم أهل القرى
المجاورة (أقمطة) ومعناها قريب من معنى كلمة لصوص .

يسمع الرحالة كيف فقد البائع ساقه .

- كنت أقول لك إنه فى يوم «سان إنريكي» فى عام إعلان الجمهورية
قلت لنفسى : استانيسلارو ، يجب أن تنتهى من هذا الأمر ، فأنت والله

(١) تعبير عامى ساخر يقصد به الوداع إلى الأبد . يقال : إلى اللقاء (فى وادی خوسافات) -
المترجم .

لبائس . ألا ترى أنك شقى ؟ وكان القبيظ قد اشتد إلى حد لا يطلق . وكنت في كامبوريال (Camporreal) ثم ذهبت إلى أرغندا (Arganda) ونمت على شريط السكك الحديدية وقلت لنفسى : عندما يأتى القطار سينتقل استانيسلاو إلى العالم الآخر . لكن ، هيهات ! أقسم لك إنى ظلمت هادئا وادعا مادام لم يأت القطار ، وما إن أطل من بعيد حتى لاحظت كان بطنى تسهل . تماسكت قليلاً ، لكن عندما أصبح القطار أعلى رأسى قلت لنفسى : أهرب يا استانيسلاو إنه سوف يدهمك . قفزت قفزة لكن ساقى بقيت فى موضعها ، ولولا أسعفتى بعض عمال مصنع السكر لكنت نرقت كل دمي كخنوص . حملونى إلى بيت الطبيب وعالجونى هناك وأطلقوا على هذا اللقب عند رؤية ما كانت عليه سراويلى . كان من بين من نقلونى رجل حمل الرجل المقطوعة فى يده ممسكا بها من الحذاء ومتسائلا : اسمع ، ماذا أفعل بهذه ؟ ويبدو أن الطبيب لم يكن يدرى ماذا يفعل لأن رده الوحيد كان : هذه تسمى ساق ، أيها الأبله ، هذه تسمى ساق .

يرى الرحالة أن من الفطنة مقاطعته ، فقد اتخذ البائع مظهراً بائساً وطاطأ رأسه عند الحديث عن الساق التى تركها فى أرغندا .

- أتريد أن تشعل غليونك ثانية ؟

- حسن ، هل تفهم فى تدخين الغليون ؟

- قليلاً ..

- من الأرجح إنذا ألا أشرح لك شيئاً .. يكفيك أن تعلم أن هذا الغليون هو «كاميليا دى لوكس» من باريس فرنسا . يالللشقاء ! ما أكثر الجهلة ! اسمع يا سيدى ، أتدرى من أهدانيه ؟

- كلا ..

- احفظه جيداً إنذاً . إنه الجنرال ويلر (١) (weyler) ، وكان ذلك فى طريق
روسالس فى مدريد .

نظر الرجل إلى الرحالة بهيئة المنتصر ثم ابتسم :

- هاها . مع من كنت تعتقد أنك تتحدث ؟

تجاوزت الساعة الحادية عشر صباحاً ويحس الرحالة بالجوع .

- أتقسم لى أنك لست من أوانثويكى ؟

- نعم يا رجل أقسم لك .

جلس البائع على حافة الطريق وفك الساق الخشبيه وأشعل غليونه .

- حسناً . فلنأكل شيئاً إنذاً . ماذا تريد ؟ أتخلط الطعام أم أن كلا يأكل

من زاده ؟

- من الأفضل أن نخلط ، ألا يبدو لك ذلك ؟

- بلى أرى ذلك ، وأعتقد أنك تجحف الزاد حقه ، لكن على أية حال ، أنا

لم أحضر إلا نزراً يسيراً من اللحم المقدد .

وأكل الرجلان وشربا من جراب ونبيذ من كانت له ساقان صحيحتان .

ربما بدا هذا غريباً ، لكن فى الريف - قد لا يحدث هذا فى المدينة - عندما

يجلس رجلان على حافة الطريق ، يمكن أن يرى بوضوح أن الله ينظم

الأشياء على قدر كبير من المنطق . التهم البائع الطعام التهام الأسد ، بينما

أخذ الرحالة يفكر فى أن الرجل قد يكون من أوانثويكى .

- يعجبنى أكل هذا الدهان بدون خبز . دع الخبز إلى ما بعد فقد

(١) قائد الجيوش الإسبانية فى كوبا (١٨٩٦ - ١٨٩٧) . لم تغلح خبرته وعزمه فى الإبقاء على

المستعمرة . استقبله الشعب استقبالا حافلاً عند عودته من هناك .

تحتاجه . قال بائع الأشرطة هذا وهو يلتهم عليه الـ Foie gras . بعد الأكل ، تحول الرجل إلى محقق :

- اسمع ، ما هي حرقتك ؟

- حسن .. كما ترى .. أمضى في طريقي مجرباً حظي .

- لا لا .. أجب كما لو أن الحرس المدني يسألك .. ما مهنتك ؟

لم يكن الرحالة يدرى بما يجيب .

- قل يا رجل ، قل .. فأنا لسبت بمتشدد ، علاوة على أنه إذا ما أمعنا النظر سنجد أننا جميعاً نلقى ما كتب لنا ، هذا إذا ما كان لنا حظ في أي شيء على الإطلاق . حسناً .. ما هذا إلا محض افتراض . فهنا من لا يتحين الفرصة هو أدرى بما ينتظره «إنا نهبنا إلى الياس ضع عباءتك على مرمى البصر لأنه إذا جاء أهل «فوينشميان» سوف يسرقونها منك» (١) والآن إذا لم ترغب في الحديث فلا تقل شيئاً . فهذا لا يهمنى شخصياً .

صمت البائع لحظة وعاد فأخذ جرعة نبيذ ثم استأنف :

- أمي كانت تقول : في هذه الدنيا كل من يأكل يسرق ، ومن لا يسرق لا يفعل ، لأنه لا يعرف كيف يسرق ، فما هي حرقتك ؟

قبل قليل من دخول «غارغولس أسفل» ، وبعد السير فترة أخرى ، ودع البائع الرحالة فجأة :

- أتعلم يا سيدي ؟

- ماذا ؟

- حسن .. لن أتقدم خطوة واحدة أخرى ، فأنا لن أدخل هذه القرية ..

(١) مثل إسباني .

- أنت مكدود ؟

- لا ، لست مكدوداً . لقد أكلت اليوم ولا أريد أن أغضب الله . فأنا لا ادخل القرى إلا بحثاً عن الطعام ، وعندما أفرط يعاقبني الله ويجعلني أتقياً دماً . اسمع ، هل سيمكنك حينئذ أن تغيثني ؟

في غرغولس ، يجد الرحالة كهوفاً لها أبواب موصدة بأقفال تستخدم عادة في حفظ النبيذ والبطاطس . لا يتورع الناس عن وضع العراقيل في طريق صديقه استانيسلاو دي كوستكا ورد ويغث إي رودر يغث بن أخى نائب الملك في اليبورو .

وحتى لا ينسى الرحالة كيف كان «الغائط» ، يسجل في ورقة نصف بياناته :

دون استانيسلاو دي كوستكا

له ساق خشبية .

بائع جائل في طريق القرية .

- شرائط

دبابيس

زجاج ملون

دبابيس للشعر

أمشاط

ورق معطر

حانوت آمال الحكماء .

دون استانيسلاو دي كوستكا

يحمل على عاتقه ملاكا شريراً .

غارغولس قرية بستانية حرثت أرضها بعناية وسكانها مجتهدون في عملهم . هناك ، يلتصق طريق السيارات بالنهر ويستمران على هذا النحو حتى تريو . ينظر عدد من الأطفال الجالسين على سياج إلى الرحالة ويشرب الفلاحون ثم ينهضون وينظرون أيضا . يدخل الرحالة فندقا ليس له اسم كـفندق «توريخا» لينعم بقسط من الراحة ويغتسل وينتظر موعد الغذاء .

وفندق غارغولس على يسار الطريق شأنه في ذلك شأن البلدة نفسها - من ناحية ثيوفونتس ، وله بوابة كبيرة مزخرفة بالمسامير ، وهي عتيقة جليلة كأنها بوابة قلعة . يعلق الرحالة مرآته في مسمار في نفس البوابة ويحلق ذقنه ، ويرى من خلال المرآة أن خمسة عشر أو عشرين شخصا يراقبونه من بعيد .

يخرج من الدهليز بغال يسحب بغلتين وينقر عدد من الحمام كومة قش ويرقد كلبان تمددا في الشمس ، ويجلس طفل القرقصاء بدون سراويل يقضى حاجته على أحد الأسطح وتدخل طيور السنونو وتخرج صارخة كأن بها مسا من جنون من الدهليز المكتظ بالأعشاش ، فأبواب الفندق لا تغلق أبداً .

يدخل الرحالة حجرة الطعام ، وهي حجرة مربعة الشكل سقفها عال بعروقه الخشبية العارية من خشب القسطل المعرض للهواء . وتزين الحوائط نصف دستة من الصور المطبوعة تمثل عصافير حية مختلفة الألوان وأرانب رمادية ميتة معلقة من أقدامها وسرطان البحر المطهو

وأسماء التروية الفضية اللون بعيونها الزجاجية .

تقوم على خدمة الموائد خادمة حُسناء مكتنزة داكنة البشرة تلبس السواد . عيناها سوداوان عميقتان متاملتان وفمها كبير وشهوانى وأنفها دقيق بديع الرسم وأسنانها بيضاء . وخادم غارغولس منغلقة جافية فلا تبتسم ولا تتكلم ولا تنظر ، تبدو كأنها سيدة عربية .

يحوم كلب سلوقى حول الرحالة ، الذى يتناول حساء الثوم وعجة البيض والسمك المقلب ، وهو كلب مراعى للذوق ومتعقل فلا يضايق أحداً ولا يسأل شيئاً ، كلب يصبر على فاقته فى عزة .. يأكل عندما يعطونه وإذا لم يفعلوا تغاضى عن الأكل . فى ظله ، دخل كلب آخر أشقر كثيف الشعر فى هيئته شئ من ذئب تتردد نظرتة بين حانية ومتعجبة . وهو كلب سوقى بلا روح . يزمجر ويكشر عن أنيابه إذا منعه وهو جائع فعندما يلقي إليه الرحالة بكسرة خبز جافة يلتقطها فى الهواء ثم ينتحى جانباً فيستلقى ويلتهمها . وينظر إليه السلوقى الأسود فى اهتمام لكن دون أن يحرك ساكناً .

بعد تناول الغذاء ، يشعل الرحالة سيجارة وينهض ويقرأ على الحوائط المطلية بالجير بعض العبارات المكتوبة بالقلم الرصاص وكأنها دورات مياه فى معاهد التعليم الثانوى .

ثمة عبارات من كل الألوان والأنواع . إحداها مكتوبة بخط مطبوعة واضح يقول : فرقة المسرح والمنوعات . فرقة أوليبارس - حفلتين بـ ٦٠٠ بزيتة - بنجاح كبير ١٣/٣/١٩٤٥ ، وهى عبارة راضية ومتفائلة ومفعمة بالحبور . ثمة أيضاً رأس امرأة مسترسل بإمضاء فرمين غونثالث ، من كوينكا ، وهو توقيع جميل وفخم وأنيق ، توقيع له مظهر قضائى متحدٍ . يخلع الرحالة نعليه ويتوسد جرابه ويلتف فى بطانيته ويستلقى للنوم

فى أحد الأركان على الأرض . إلى جانبه استلقى السلوقى الأسود أيضا كأنه يحرس نومه فى الوقت الذى خرج فيه الكلب الأشقر إلى الشارع . لقد كان كلبا بلا شخصية ، يفتقر إلى الحكمة ، فلم يكن ليستطيع أن يتحمل أن يظل ساعة أو ساعة ونصفاً بلا حراك ، دون أن يفعل شيئاً .

يتفرع من غارغولس طريق سيارات يؤدى إلى ثايدون مباشرة ويمتد عدة فراسخ على ضفاف نهر التاجه . يتردد الرحالة بين التوجه إلى بلدة تريو متبعا نهر الثيفونتس حسبما كان قد انتوى ، وبين أن يند النهر الذى شهد مولده لياخذ طريقا جديداً ، منتحياً قليلاً عنه ليقضى الليل فى «غوالدا» (Gualda) . خارج غارغولس ، فى اتجاه تريو ينهال رجل ضرباً على حمار أسود ضخم يرفس رفسات رهيبة ويرفع شفته العليا مكشراً عن أنيابه ، وتشرح امرأة للرحالة أن الحمار يبدو من قرية «إيتا» (Hita) . ويبدو أن حمير إيتا - كنساء فراغوس (Fraguas) - لا تتمتع بسمعة طيبة فى الإقليم .

بعد ذلك بقليل ، يغير رجلان إطار إحدى الشاحنات حملت عن آخرها يرمى الرحالة طيلة يومه فى الطريق ومع ذلك لم يعتد رؤية أكثر من حافلتين أو ثلاث ، أو بعض سيارة خاصة ، أو عربة نقل صغيرة على أحايين متباعدة .

بث غارغولس - التى تركها الرحالة الآن وراء ظهره - رجالها فى البساتين ، فأهل البلدة مجدون وحازمون وربما كان بعضهم على شئ من الغظاظه .

يحكى تاجر أقمشة - يجوب الأرض على عربته - أن رجلاً من غارغولس أراد أن يصبح ثرياً فى عامين فأتى من «لابويرتا» (La Puerta) - على بعد خمسة فراسخ تقريباً - على دراجته حاملاً ثلاثة عشر جدياً على عاتقه وعندما وصل إلى القرية كان قد هلك وانخلع قلبه وكبده من

مكانيهما .

ويضيف تاجر الأقمشة :

- ولك أن تحكم يا سيدي .. «الطمع يشق الجوال ، ومع ذلك يسمون أهل «الكوثير» وحوشاً لأنهم أقوا بتمثال المسيح فى النهر (١) .

ماتزال الطبيعة وارفة عند الوصول إلى تريو . تنمو الخضرة التى تعتمد على الماء وترتفع الأشجار شامخة مثلما فى بريويغا . فهذه الأرض - فى وجود الماء - تبدو أرضاً طيبة وتمكن رؤية شجرة قسطل من حين لآخر . عند مدخل القرية ثمة دار أنيقة المظهر تغطت بالزهور ويعيش فيها شيخ متقاعد متقدم فى العمر كان من متسلقى الجبال ، يزرع ورودها وقرنفلها ويحرق بستانها .

وكان شميث - الذى يفكر فى تشييد منزل أمام مساقط مياه نهر الثيفوتنس قبيل مصبه فى نهر التاجا - متسلق جبلا شهيرا ، فى جبال وادى الحجارا ثمة طريق يحمل اسمه .

وشلالات ثيفوتنس هى بمثابة ذيل حصان بديع المنظر يبلغ ارتفاعه ما بين خمسة عشر وعشرين متراً من المياه الزبيدة المزمجرة . وتحاط ضفتاها بالعصافير التى تقضى النهار مشقشقة . والمكان الذى سيبنى فيه المنزل جميل وربما مفرط فى الروعة .

يبحث الرحالة عن مكان لقضاء الليل فيترك متاعه ويتجول فى القرية . ند الجسر ، يشاهد جريان الماء القدر بلون الطين ، وليست لضفتى النهر هالم واضحة . هناك ، ينتظر عدداً من الصيادين ، لهم هيئة الفلاحين أو بغالين بثيابهم من القטיפفة الخشنة ونطاقهم الأسود وقمصانهم المعقودة

(١) أوضح لنا المؤلف أن فى إقليم القرية يغنون هذه الأغنية الشعبية :

لم أر اناسا أكثر وحشية / من أهل الكوثير/ فقد أقوا المسيح فى النهر/ لأن السماء لم تعطر.
(الناشر)

عند العنق ، أن تتعلق بشصوصهم أسماك التروثة . ووراءهم بقليل ،
تغسل بعض النسوة الملابس .

فوق الشلال

يغنى العندليب .

على ضفاف التاجه

يصطاد الفلاح

- وفي أرض البستان الغضة

يحرث صياد السمك .

- طلعت سنابل الغرنوق

على الخضرة الفجرية .

- والاشجار لها مظهر جليل

- فى تريو يفوح

العالم بأريج آخر .

يتناول الرحالة بعض حلواء صغار البيض وفضائل فى حانوت يقع إلى
جانب الجسر ، ثم يدخن سيجارة عند الباب مع جمع من الرجال عادوا
لقتوم من الحقول . لا يلبث الجمع أن يزداد . ويفصح الرحالة عن رغبته
فى رؤية القرية فيصحبه ثلاثة أو أربعة رجال فى مثل سنه ، وحانات تريو
ذات طابع صاخب مرح ، وهى دائماً مهيئة للقصف والضجيج . يجد
الرحالة الناس لطافاً كراماً متوددين . يقول هذا لأصدقائه فيجيبه أحدهم
مبتسماً :

- اعلم أنهم يقبوننا بالشريرين . فلك أن تتخيل .

عند الخروج من الحانة تلتقى الجماعة برجل شاب فيقول أحد مرافقى

الرحالة :

- أقدم لك السيد العمدة .
- يحيى الرحالة والعمدة كل منهما الآخر .
- لى عظيم الشرف !
- الشرف لى أنا !
- ماذا ؟ أتقوم بزيارة المكان ؟
- حسن .. نعم .. أقوم بجولة .
- الرحالة والعمدة ليس لديهما ما يقولانه .
- أنت فى حاجة إلى أى شىء ؟
- لا .. لك جزيل الشكر ..
- تدل هيئة العمدة أنه فى الثلاثين أو ما يربو على الثلاثين عاماً .
- مهنته : خياط وله أيضاً محل نسيج وخياطة .
- أثناء السير فى البلدة من مكان إلى مكان ، يتطرق الحديث فجأة إلى موضوع مصح الجذام .
- فى بداية الأمر كنا متخوفين من أمر المصح ولكننا الآن بدأنا نعتاد عليه .
- يشترك رجل شيخ فى الحديث :
- غير أن ما يؤسف عليه حقاً هو فقدان حمامات كارلوس الثالث ذائعة الصيت فى إسبانيا كلها ، ولعلك يا سيدى تعرف المثال القائل : «إن تريو تشفى كل شىء إلا الزهرى والجنون» .
- ولكن ، ألا تخشون من العدوى بالجذام ؟
- ينظر الرجال إلى بعضهم البعض قبل أن يجيبوا :

- البعض يخشى من ذلك والبعض الآخر لا يخشاه .

قبل العودة إلى الخان يسجل الرحالة الألقاب الشائعة فى الإقليم . ففى كل هذه القرى وجد الألقاب تبانيرو وغامو وأورتشائيتا وباتشيير وبرميخو ورودريغو والبارو ولانيا ورمو وبوديغا وبوياتوس .

- بعض هذه الألقاب من هذه الناحية والبعض الآخر من أنحاء أخرى ، ولا أظنك تخالهم قد اختلط ببعضهم البعض .

- لا ، بالطبع لا .

يقرأ الرحالة ، وهو ينتظر العشاء فى المنزل ، فى الكتاب الذى أهده له خوليو باكس فى بريويغا . يقرأ ما يقوله عن مياه تريو دون رامون توميه مترجم « دراسة عملية فى مرض النقطة » وصاحب بحث حمامات وينابيع المياه المعدنية « الواقع فى آخر الكتاب .

يصف دون رامون توميه فى أيجاز موقع البلدة - على بعد فرسخين من ثيفونتس على ضفاف التاجة ، فى مقاطعة وادى الحجارة وأسقفية سيجونثا - ويورد رأى دون أوخنيو أنطونيو بنيا فيبيل طبيب تريو ، المذكور سلفا فى قائمة المياه المعدنية التى كتبها دون كاسيميرو أورتيغا ، عن قصة البارون مسنيس ضابط الحرس الملكى الغالونى العجيبة . وكان هذا الرجل - على حد الاعتقاد - قد جاء تريو عاجزا ، ثم انه بعد عدة أيام من الاستحمام فى ماء معدنى خلط بمصل عنزة أخذ فى التحسن واستطاع الرجوع الى البلاط - طبقا لما يقوله المؤرخ - وكله أمل . حدث هذا فى ١٧٦٨ .

كان الرحالة يفكر - عندما نودى للعشاء بعد ذلك التاريخ بما يربو على مائة وسبعين سنة - فى أن البارون لا بد أنه كان سعيدا عقب زياته لحمامات تريو .

فى حجرة الطعام ، كان ثمة رجلان ، تاجران متنقلان ، يحتسيان القهوة ، كانا قد فرغا من عشائهما ، على أنهما فضلاً أن يمر بعض الوقت قبل أن يأويا الى فراشهما . وكان أكبرهما سنا يقرأ جريدة أسماها « القرية الجديدة » والآخر - الأصغر سنا - كان يدون حساباته فى دفتر . جلس الرحالة أمام صحن البيض المقلى والسجق .

- مساء الخير !

- مساء الخير ، هنيئاً مريئاً !

- هلا تفضلتما ..

. - شكرا ، لقد انتهينا من تناول العشاء .

ترك الرجلان القراءة والكتابة ووجها نظرهما الى الرحالة . كانت لدى كليهما رغبة فى سؤاله وخاصة أصغرهما سنا لكنهما لم يجرؤا على ذلك فى بداية الأمر ، هذه هى الحقيقة ، وكانت هيئة الشيخ توحى بزهد فى الكلام وكأبته وقلقه ، بينما كان الشاب - على العكس من ذلك - محباً للحديث قصير القامة خدوما يحاول أن يكون لطيفاً دائماً . اسمه مارتين ويعمل مندوباً لمصنع أحذية من القماش نعلها من القنب أو من المطاط ، حسب الطلب . وعلم الرحالة فيما بعد أن أكبرهما سنا اعتاد التنقل من مكان لآخر فى الحافلة أو مشياً على قدميه ، إذا كان ذلك متعذراً ، بينما يتنقل مارتين - فى المقابل - على دراجة ، فلما رتتين مفهوم رياضى للوجود .

وقد قال للرحالة مرة :

- بجوادى الغولاندى فى حالة طيبة أنا قادر على الذهاب الى نهاية العالم لأبيع أحذية .

ولم يكن الرحالة قد ارتاب في أمر ذلك لحظة واحدة .

- حتى نروج لأى سلعة علينا التسلح بالظرف والصبر ، ظرف كثير
وصبر جميل ، وإلا فليس هناك ما يمكن عمله ..

- ألا تبيع سوى أحذية القماش ؟

- نعم يا سيدي ، أنا أبيع كل ما نفتقر اليه من سلع . انا لم تكن في
القرية أزرار أو قطن للرفو أو ورق خطابات ، أكتب الى الشركة بطاقة في
الحال ، ثم أتفرغ لشيء آخر ، فالترويج لسلعة واحدة لن يكفيني
مصروفاتي .

للوصول الى حجرة الطعام يجب المرور بالمطبخ . عندما دخل الرحالة
كانت صاحبة المنزل تتناول عشاءها مع ذويها .

- في هذه القرى ، الناس كالثعالب ، أتعلم يا سيدي ؟

بينما يتكلم ، كان مندوب المبيعات يلصق لفافة تبغ من علبة الرحالة .

- ما أن يرقد الانسان على القش حتى كادوا له .. بيد أن هذا ليس سيئا
دائما ، فهكذا يمضى الانسان متيقظا دائما .

يأخذ المندوب « نفسا » من السيجارة ثم يدير رأسه . ينظر الرجل
الثاني بعد أن طوي صحيفته .

- لأن اسبانيا شعب جاهل جدا ، ليست ثمة ثقافة ، فتكثر الأمية .
فهنا نذاحيث ترانى ، درست ثلاثة أعوام في المرحلة الثانوية ، ولكن لا
أشتكى وأعيش حياتي ولى في هذا العمل ما يكفيني . فى يوم ما أصبح
ثريا ، فإذا لم أتمكن من ذلك فما عساي أن أفعل ؟ .. أما الآن فأحاول أن
أحيا حياة صحية وأستنشق الهواء جيدا ، فأنت تعلم يا سيدي ما كان يقال
قديمأ : العقل السليم فى الجسم السليم . لقد نشأت فى مدارس

الساليزيان وأصبح بعض زملائي أطباء أو ملاحظي بناء ويعيشون
كالأمراء . ولا أتعامل معهم الآن لأنى لا أرغب فى ذلك ، ولكن عندما
أحييهم أود أن أكون مثلهم وأن يكون لى بيت محترم ، فعندى كبريائى
الشديدة .

- هذه هى الحقيقة ..

- طبعاً ، هى حقيقة كبرى ، فمن نفس التراب خلقنا جميعاً .

بعد اعترافه يسأل المندوب الرحالة فى مداراة :

- وأنت يا سيدى ؟

- حسناً .. أنا كما ترى .

- عندما أخبرونى بأن هناك سيديا جاء لتوه ، فكرت فى أنه ربما كان
من النيابة العمومية .

يحتار المندوب فى أمره قليلاً :

- لأنك لست مندوباً متنقلاً ، هذا ما أعتقده على الأقل ، وإلا لكنا
التقينا من قبل .

- بالطبع !

تطل صاحبة النزى حامله موزا وفنجان قهوة . يسألها الرحالة عن
مرشد ليقوده أثناء عبوره لا تيس دى بيانا ، عن أى صبى يعرف الطريق
ولديه دابة تحمل الأمتعة . تفكر امرأة الفندق برهة .

- الا اذا كنت ترغب فى أن يصحبك كيكو .

- من هو كيكو ؟

- أكبر أبنائى ، يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً .

يأوى الرحالة إلى فراشه - بعد التوصل إلى اتفاق مع صاحبة الفندق -
ويصعد معه مارتين فسريراهما فى نفس الحجرة .

- الى أين تذهب يا سيدى ؟

- حسنٌ .. لا أعرف بالضبط . قد اذهب الى بوديا
أوباريجا (pareja) .

يسأل المندوب المتجول وهو على سريريه وقد أطفئ ضوء الحجرة :

- لا يهم أن تذهب الى مكان أو الى آخر ؟

- لا ، فى الحقيقة . فيم يهمنى ؟

بعد فترة ، وقبل أن يخلد الى النوم ، يسأل المندوب المتجول :

- اسمع يا سيدى ، اغفر لى فضولى . عندما تأكل بيضاً مقلياً ، تأكل
دائماً خمس بيضات ؟

الرحالة لا يجيب . يتظاهر بالنوم . فى الخارج ، تزار مساقط مياه
ثيفونتس فى رتابة وسط السكون الرهيب .

من نهر التاجة الى جدول العزلة

يستيقظ الرحالة فى السادسة . الوقت فجر . استراح الرحالة جيدا بعد ان نام الليل دفعة واحدة . يغتسل ويرتدى ثيابه ويطوى بطانيته ويرفع جرابه على كتفه ويخرج ، كان مرتين قد صحا .. يحييه :

- عمت صباحاً

- عمت صباحاً ، هل نمت جيداً ؟

- نعم ، وأنت ؟

- لقد نمت جيداً أيضاً ، ألا تنهض ؟

- لا ، لا ، أنهضي بعد ، فأنا أذهب على دراجتى .

- أجل ، بالطبع ..

يقف كيكو عند الباب ومعه بغلة فى انتظار الرحالة . وكيكو فتى قوى البنية اغتسل جيداً ومشط شعره جيداً ويلبس قميصاً نظيفاً طاهراً ، وكانت أم كيكو قد استيقظت لتعد ابنها ولتعد الفطور للرحالة .

وتسمى بغلة كيكو « خار دينيرا » (بستانية) وهى بغلة شابة كستنائية ليست شديدة الضخامة كما يبدو أنها من أصل طيب . يعبر الرحالة ورفيقه نهر التاجه ويسلكان طريقاً للنعاج يودى الى تل « لا

دييسا» (La Dehesa)ويشرح كيكو للرحالة أن دير « أويلا » (O´vila) نقله الأمريكان حجرا حجرا الى بلادهم قبل الحرب الأهلية .

والخضرة فى تل « لادييسا » خشنة وبلسمية وفيها نبق وزامور ولاوند أصلى ومريمية وريحان داوود ورتم وجولق وكرمدان ولاوند وبلاخ وزعتر ، وهى خضرة قد لاترى ، بيد أن استنشاقها ربما سبب دوار . ليس الطقس حارا بعد وإن نبأ بشديد قيظ ، الهواء صاف . ويلوح نهر التاجة بعيدا بديعا فى غاية الأناقة وإن كان فى الحقيقة عكراً وقبيحاً ، ويرى مقبلا من بعيد راسما عدة انحناءات ومحاطا دائما بالشجر . ويبدو مصح الجذام على ضفته أقرب ما يكون إلى الطريق ، وهو مكون من عدة أجنحة وبعض البنات الصغيرة المتفرقة .

يشرح كيكو للرحالة كل مايربانه فى الطريق : هذا كذا وهذا كذا .. بعد ذلك يبتسم ليقول بنظرة حزينة :

- يالشقاء هؤلاء الناس ، أليس كذلك ؟

- بلى

-حظهم فى الدنيا قليل هؤلاء . أليس كذلك ؟

- بلى .

تحت أقدام الرحالة ، على جانب النهر القريب منه ، يمتد الطريق المؤدى الى « اثانيون » (Azanon) « وبيراالبتش » (Peralveche) « وركوينكو » (Recuenco) .

- من هناك أيضا يؤخذ طريق « بيانا » و« لا بويرتا »

وحمامات «مانتييل» (Mantiel) .

- ومن هنا..

- نعم ، ومن هنا أيضا . فمن هنا ثمة شعب يؤدي مباشرة إلى «بيانا» .

يريد الرحالة استغلال انتعاش الطقس وأن البغلة تحمل متاعه فيحث السير دون توقف أو متوقفا للحظات قصيرة وعلى أحييين متباعدة لتأمل الطبيعة .

مروراً «بانترينيا» (Entrepéna) يرى الرحالة ديكورا بديعاً ، ديكورا مسرحيا من الحجارة الضخمة الملساء الشديدة الوعورة ومن الأشجار الميتة قصمتها صاعقة . يحلق طائر جارح حاملاً خرنقا في مخالفه ويفر برص ضخم ذو لو أخضر وأصفر وأحمر هاربا عند قدمي الرحالة .

عند مغادرة الأرض المسماة بـ «عين لاغاليندا» (Fuente De LA Galinda) يظهر «ثديا بيانا» مدببين عنيفين . يحس الرحالة بأنه شاعر ويخط بقلمه:

عند ثدي بيانا
البغل والطبيعة وأنا
السادسة صباحا
يغرر طائر الحسون
على غصن العليليق
وعلى الأرض المشمسة
كان يقف أرنب طائش
ليرى هذا المنظر الأسطوري
البغل والطبيعة وأنا
السادسة صباحا

-غير معروف . . لا أحد يعرفه .

يطن عش زنابير فى تجويف فى إحدى الأشجار .

- ونهبوا نقوده وقطعوا أذنيه .

- لا بأس!

- كانت هذه هى العادة حسبما يقال . . لا أعرف . . هذا متروك لكل

شخص

-والآن ؟

-آلان لا . . . لاأعتقد أن هذه الأشياء تحدث الان بكثرة .

يمران بجبال « لاس أكائيس » (Las Acacias) وراءعين « لاغاليندا» ،

وهى تلال منخفضة تنتهى فى سهل «أوليبار أويكو» (Olivar Hueco)

فى سفح « لاس تيتس دى بياننا» ثمة مروج من عشب غض أخضر

تحيط بها أشجار العليق والنبق .

- يمتد الشعب من هنا على اليسار دائما ، ولكى نصعد حتى لاس

تيتس دى بياننا يجب أن نتركه ، وهناك سلم خشبى يصل حتى ذروة

الجيل فقد كانت نقطة مراقبة أثناء الحرب . أتريد أن نصعد حتى هناك ؟

- كلا فنحن نسير على ما يرام من هنا .

كلا الثديين متساويان تقريباً إذا نظر إليهما من ناحية الشمال ، وربما

كان الثدي الغربى أعلى قليلا ، ولهما شكل مخروط قطع قبل أن يصل

إلى قمته وينتهى كل منهما بهضبة أطرافها صخرية قطعت بالمعول ولا

بد أنهما وعرا التسلق .

عند بلوغ المتحدر يجد الرحالة نفسه أمام منظر خلاب أولا ثم مقفر

قليلا بعد ذلك . تبدأ فى التفرع من الشعب مسالك طمست معالم بعضها

وتسير البغلة فى حذر وفى حرص شديدين ، وأحيانا إذا ما وطأت الأرض تناثرت الحجارة تحت أقدامها . فى وسط السفح ، ناحية أسفل ، توجد عين «البيلون» (El Pilón) . ود الرحالة لو أمكنه أن ينتعش بمائها . يشد الحر ويتفصد كيكو والرحالة عرقا غزيرا من رأسيهما .

– ألا تغتسل قليلا ؟

– انتظر ياسيدى ، فى أسفل السفح عين سان خوان وهى أفضل .

بعد ذلك بقليل ، تظهر عين سان خوان مختبئة بين الأشجار فى منعطف بالطريق . ينتعش الرحالة بمائها وقد تعرى نصفه الأعلى ثم يجلس فى الشمس بينما يلل كيكو ذراعيه وجبهته .

– الماء غادر شديد الغدر ، أحيانا يصيب الإنسان بما ليس فيه .

من ناحية الجنوب ، يبدو الثديان أكثر قبحا وأقل رشاقة ومشوهين كأنهما معوجين . تقضم البغلة سرخس العين بعد أن تخففت من حملها ، وتعبر الفضاء على ارتفاع كبير بعض طيور الحبارى وهى جماعة من ستة أو سبعة ، وتتق الضفادع وتطل السحالي فى دهشة من بين الحجارة فتتنظر لحظة ثم تفر مسرعة بعدها .

يصل الرحالة ، بعد هبوط المنحدر ، إلى «بيانا دى مونديوخر» (Viana De Mondejar) وهى ضيعة صفراء اللون تستند إلى جبل أفتس أسود تقريبا . لا يدخل الرحالة بيانا بل يبقى على أبوابها ويتناول طعامه مع كيكو فى ظل أكمة من أشجار الحور الضامرة على ضفة نهر «السولانا» وهو نهر بدون ماء تقريبا يحمل فقره على عاتقه منذ أن نبع من جبال «أمبريا سكا» (Umbria Seca)

بلاماء يمضى الجدول

ويلا أصل الثور

وبلا ظل ينمو الحور

بلون الذهب .

تحت الشديين

ترقد كل صباح

منازل بيانا

بلون الرصاص .

بعد الغداء وبعد أن عاد إلى الأرض المنبسطة ، يودع الرحالة كيكو وبغلته خاردينيرا ويستلقى فى الظل ويغطى عينيه بقبعته . وما أن يمر بعض الوقت حتى يغط غطيظا فى نوم هادىء ومنعش ومريح . وعندما يستيقظ ينهض ويتمطى قليلا ثم يحمل جرابه ويواصل طريقه . يبدو أن وقتا كافيا قد مر لأن كيكو وبغلته خاردينيرا على الجانب الآخر من الشديين ، فليس لهما أثر فى أى مكان .

تغسل امرأة فى صمت ورأسها عارتحت الشمس المحرقة . ينتصف النهار والسكون تام فلا يسمع إلا خرير نهر السولانا يصاحبه نقيق مستمر كخلفية موسيقية .

للوصول إلى لا بويرتا يمتد طريق على ضفاف الجدول طوال الوقت قريبا ، فأحيانا ينفصل الطريق قليلا عن النهر، وحينئذ تظهر بينهما بستاتين . ولدخول القرية لابد من المرور بجسر صغير من الحجارة مليح شكل . يمر نهر السولانا من تحته ثم يتسلل بين مجموعتين كبيرتين من الصخور لها شكل منشار أو عرف ديك، وسبب تسمية القرية باسم لا بويرتا، (البوابة) واضح جلى .

سمك التروثة فى الجدول

والديك على السطح .

وتشتعل فى الربيع

بلونها الزجاجي

قميئة الفحم القديمة

بفحمها النباتي

يدخل الرحالة القرية ويبحث عن نزل . ليس فى النزل شئ يؤكل ،
فيسأل فى بعض منازل القرية وكلها تجيبه نفس الإجابة . تخور قوى
الرحالة بعد أن جال القرية صعوداً وهبوطاً لا سيما أنه كان قد دخلها
متعباً . يقول له عمدة القرية إن بإمكانه أن يقدم له خبزاً فقط .

- نحن فقراء كما تلمس يا سيدى لكن أهدأ لم يمر من هنا وذهب عنا
دون كسرة خبز . أقالوا لك فى النزل إنه ليس ثمة أى شئ يؤكل ؟
- أجل يا سيدى .

- إنه لم يعد فندقنا ، أتعلم هذا ؟ أحيانا يأتيهم أحد لكنه لم يعد فندقنا .

يذهب العمدة والرحالة إلى مبنى البلدية ، وهو عبارة عن حظيرة
مهجورة بها مكتب صغير فى أحد الأركان . يجتمع رجال القرية فى مبنى
البلدية جلوساً على الأرض أو مستندين إلى الجدار المتشقق . عندما يحضر
العمدة ينهضون ويكشفون رؤوسهم وعندما يجلس يجلسون أيضاً
ويغطون رؤوسهم ثانية . وإذا تحدث أحدهم فعل ذلك واقفا ورافعا يده
ناحية قبعته .

والعمدة رجل له من العمر ما يقرب من أربعين عاماً قوى البنية
عريض المنكبين . ويحيا أهل لايبورتا على عائد الفحم النباتي وزراعة
البساتين وشئ من صيد الأسماك . يلاحظ الرحالة أن جميعهم لهم عيون

زرقاء . وأهل الإقليم يعيبون عليهم غلظة سيقانهم :

أهل لابويرتا

غليظة سيقانهم

سبعة أزواج من الجوارب

يرتدى بعضهم

يفكر الرحالة بينما يتحادث أهل القرية فى أمورهم فى أنه من الأفضل أن يستريح بضع سويعات ثم يذهب إلى مكان آخر . عندما ينتهون ، يتحدث العمدة :

.. -- المشكلة هى أن بوديا بعيدة عن هنا .

- لا يهيم أنا مستعد لأن أستأجر عربية كارو إذا أراد أحد أن يحملنى حتى هناك .

يعود الرحالة إلى النزل ليحرب أن ينام فترة ، وكان العمدة قد اتفق معه على أن يرسل إليه عربية كارو فى السادسة أو فى السابعة ، موعد الإياب من الحقول .

يدخل الرحالة المطبخ وقد هزل جرابه فلم تعد به إلا بيضة مسلوقة ويرتقالتان . تقدم له امرأة النزل بعض لحم الماعز وكوبيا من لبن الماعز أيضا . يفكر الرحالة فى حمى مالطة وفيما يقال من أن الجوع أكثر نطحا (من الثور) فيأكل كل ما تقدم له المرأة .

اللحم صلب متيبس واللبن له طعم خشن زائف شديدة الحلاوة . تحيط بالرحالة أثناء أكله ثلاثة أو أربعة كلاب هزيلة بائسة وعدد مماثل من القطط الغلظة ذات النظرة المتوحشة التى تنفخ دائما ويعض بعضها البعض من بعيد ، فهى لا تقترب . فى أحد أركان المطبخ ثمة إناء طينى لعمل

ماء البوتاسا ، وتزين الحائط مغارف وحلل نحاسية غليظة . وفي ركن آخر إعلان عن القטיפفة فوق العلم الإسباني وعبارة «تحيا إسبانيا» . وتحتبى أمام الموقد سيد شابة بادية الحسن تحمل طفلتها على نراعيها وتعد لها الطعام. تسمى الطفلة روسيتا. تجلس امرأة المنزل على مقعد خشبى منخفض وتحدث مع الرحالة .

- أنت مندوب متجول ؟

- لا ياسيدتى .

- هل أنت ممن يسمون بالكوميديين ؟

يقوم الرحالة بحركات مجعدا وجهه فتغرق المرأتان فى الضحك. يستمر فى ذلك قليلا فيتحول ضحك الامراتين قهقهة فهما تضربان على فخذيهما قائلتين : توقف .. توقف !

ينهض الرحالة ويقول بحركتين بهلوانيتين فوق حوض الغسيل مدعيا العرج فتحمر المرأتان وتختنقان غير متمالكتين نفسهما من الضحك. وضحك الرحالة نفسه عندما جلس القرفصاء يحك رأسه كالقرود. تبكى الطفلة روسيتا. فرت القطط فزعة وأخذت الكلاب تنبح فى الدهليز.

- لا يا سيدتى ، ولا أنا بالكوميدي .

- حسنا ، يمكنك أن تتكسب رزقك جيدا أتيا بهذه الحركات .

- أجل ، هذا ممكن .

ينتهى الرحالة من أكله وينام القيلولة فى حجرة رحبة غير مرتبة وفى فراش كبير كأنه حلبة مصارعة عليه خمس مراتب من القش. ثمة ستة أو سبعة صناديق من الصفيح الملون مرفوعة عن الأرض فوق قطع من الخشب ومغطاة بملاءات نقشت عليها أغصان باللونين البرتقالى والأزرق، وثمره أيضا مائدة مستديرة الشكل عادية ومرأتان فى إطارين مذهبين

والعديد من صور الإعلانات الملونة وصور ملازم ملتح من حرب كوبا.

والصور الملونة شديدة التنوع :

سلطان بعمامة بيضاء فى وسطها زمردة يعلن عن ماركة بن ،
وجرجية سمراء رائعة عيناها عميقتان وحالمتان تعلن عن بقالة فى
العاصمة :

منتجات عالية الجودة من المملكة ومن وراء البحار .

وتكمل الديكور خريطة لأوروبا من أيام الامبراطورية النمساوية
المجرية رسمت عليها رايات كل الأمم على حافتها ورايتا إسبانيا وفرنسا
فى الوسط على شكل مقص فوق لوحة مزخرفة تقول :

حرية ومساواة وأخوة ، وشعار بالفرنسية يقول :

زوروا المغرب .

يخلع الرحالة نعليه مستنداً إلى مقعد راهب بدا كأنه كرسى عرش،
بجانبه إبريق نحيف كأنه عنكبوت وإجانة امتلأت بشعر طويل وفواح
وحريرى لامرأة . بعد شئ من التدقيق ، يكتشف الرحالة أن مقعد
الراهب يستخدم ككرسى للحلاقة . يقرأ فى ورقة مسطرة ثبتت فى
الحائط بأربعة دبابيس وكتب عليها بالحبر بخط أنيق : حلاق لابويرتا .
سعر الخدمة . حلاقة الذقن ٠,٧٥ ، قص الشعر الأملس ٠,٧٥ ، قص
الشعر إلى الورا أو بالفارق ١,٠٠ ، قص الشعر الا باريزيين ١,٥٠ ، خدمة
بريانتين ٠,٢٥ ، كولونيا ٠,٥٠ السيدات : قص الشعر ١,٠٠ ، لابويرتا
١ يناير ١٩٤٥ ، الحلاق بابلو بالكون . خدمة حلاقة دائمة من ١١
صباحا إلى ١١ ليلا يوم العطلة : الخميس .

يعتلى الرحالة الفراش ويتغطى وسرعان ما ينعس . قبل ذلك كان قد
تأمل أرضية الغرفة الحجرية وعروق السقف السميكة من خشب القسطل

والباب الخشبي المنيع المزين بالمسامير . ينهض الرحالة فى السادسة ويغتسل فى دلو عميق فى الدهليز مأؤه بارد أحضرته صاحبة المنزل ثم يرتدى ملابسـه ويخرج . ويقف العمدة أمام البوابة ، ورجل بعربة تجرها بغلة أحضرها العمدة . وعمدة لابويرتا حاضر الذهن لاتفوت عليه فائتة فهو عمدة نموذجى ، وهو وعمدة باستراننا الذى سيعرفه الرحالة بعد أيام كلاهما خير عمد الإقليم .

قبل أن يضع الرحالة زاده على العربة يتفق على سعر النقل .
- يبدو لى السعر مرتفعاً قليلاً ..

وكان صاحب عربة الكارو قد طلب مائة بزيتة .

- ضع فى اعتبارك أنى سأضطـر للمبيت فى بوديا لأننى فى الساعة التى سنصل فيها إلى هناك لن أتمكن من الخروج إلى الطريق ثانية إلا إذا أردت أن أعود سحرجة .

- ومع ذلك ..

يتدخل العمدة ويخفض الرجل السعر إلى ستين بزيتة .

يخرج الرحاله من لابويرتا مارا بغوطة (الأكورياتيو) (El Acorbafillo) ، ويمضى محنيا وشبه مستلق فى العربة محتميا من الشمس تحت بطانية تعمل عمل المظلة وتسبب له حراً خانقاً. يتحدث الرحالة مع سائق الكارو الجالس وقد تدلت قدماه خارج العربة .

والبغل الذى يجرها هو بغل حرث فيلاحظ عدم تـعوده على العربة وعدم احتفاله بها وهو يخرج إلى حافة الطريق كلما غفل صاحبه عنه ويرفس الهواء رفساً عندما يستحث على السير بالسوط .

- فى (بوديا) ستجد كل شىء . أما هذه القرى فهى فقيرة فقراً مدقعاً

وليس لدينا إلا على قدر عددنا ، ولا تظن أن شيئاً يفيض ، فى حين أن «بوديا» واسعة الثراء ، فهناك الكبير والصغير كل لديه أمواله يتصرف فيها.

- «وثيريثيدا» (Cereceda) ؟

- مثلنا ، ثيريثيدا فقيرة جدا أيضا : وهى تقع وراء هذه الجبال . يمتد الطريق ، منذ الخروج من «لابويرتا» ، وإلى يساره جدول «السولانا» عند «ثيريثيدا» الواقعة خلف جبل «لابنيادل تورنيور» (La Pena del Tornero) يعبر جسر صغير ثم يستمر النهر موازيا للطريق حتى يصب فى نهر التاجة ، شمال «مانتيل» وعلى بعد فرسخ واحد من «ثيريثيدا» ومن تشيارون دل رى (Chillarén del Rey) وعلى بعد فرسخين من «أليكي» (Alique) ومن «أونتانيس» (Hontailas) ، وكلها طرق لسير الدواب . ويسير الرحالة فى ممر بحوض نهر «السولانا» لذا فهو لا يرى أيا من هذه القرى . وبينما يدخل سيجارة مع سائق عربة الكارو يعلم أن أهل «ثيريثيدا» يسمون أيضا بغلاظ السيقان ، مثل سكان «لابويرتا» ، ويطلق على أهل «مانتيل» الأشقياء وبهاكئى جلودهم ويلقب أهل «تشيرون» بالبخلاء وأهل «أليكي» بالنصابين وأهل «أونتانيس» بالمعالف ، لأنهم كى لا يلوثوا أطباقهم يأكلون فى معالف الخنازير .

يخطر ببال الرحالة أنه من التعقل عدم صعود الجبل لرؤية هذه القرى بجراية الخاوى من الزاد

- وأهل «بوديا» ؟

- حسن .. هؤلاء ليس لهم لقب .

تنمو أشجار العليق والنبق وزهور التين البرى على حافة الطريق ،

يلوح الآن جبل «البيخا» (Aleja) ناحية الجنوب ، وأرض «لانا» (LA Nava) في اتجاه الشمال . بعد ذلك بقليل ، يعبران نهر التاجه ويسيران على ضفافه مدة نصف ساعة حتى يصلا إلى طريق فرعى يؤدي إلى «دورون» (Dur'on) و «بوديا» ثم إلى «بريوغا» ثم إلى طريق السيارات الذاهب إلى «سرقسطة» . وبمحاذاة ضفاف نهر التاجه يمتد طريق «سائيدون» المفرع منه طريق إلى «باريخا» الواقعة على ضفة جدول «إمبولبيدا» (Empolveda) ترحل الرحالة كي يفرد ساقيه قليلاً . وعند المرور بدورون - إلى يسار الطريق مع الانحراف قليلاً عن الطريق - يبدأ حلول الظلام .

عند جبل تراسكا ستيو

يأتي رجل حتى دورون

سار طريقاً طويلاً

يحمّله بين ضلوعه

يسير كالنفّس

يجنّه التعقّل

يقول إن اسمه كاميلو

وإن قريته البادرون

على كتفه يحمّل زاده

ويجر وراءه الأمل

عند جبل تراسكا ستيو

يأتي رجل حتى دورون

في الطريق ثمة حشد ضئيل من المنازل يستريح على أبوابها رجال

ونسوة وكوكبة من الأطفال . وعند ممر «التيرادور» (El Tirador) وهو شعب ضيق ووعر إلى يساره جبال «تراسكا ستيو» وإلى يمينه قلعة «مارانيا» (Marana) - يباغت سير الرحالة أربعة أو خمسة من الشرر الذي يضىء الجبال ويترقع فى الأذان كالسياط . ترعد السماء بينما تسرى نفحة هواء ساخنة شديدة تضطر الرحالة وسائق الكارو إلى الإمساك بالعربة حتى لا تنقلب . يفزع البغل المسمى موريكو وينهق ويرفس الهواء ويعود القهقرى ، فيكبح الرجل جماحه بالضرب المبرح وبالسباب . يسقط مطر كالسيل ويحتمي الرجلان تحت العربة بعد أن انتحيا بها جانب الطريق وتدثرا ببطانيتيهما . وما إن ينقطع سقوط المطر حتى يصبح الظلام حالكا . السماء صافية وبلا سحابة واحدة ، ويبدو البغل المبتل لامعاً في ضوء القمر كأنه مطلي بالنزيت ويبدو أيضاً وأدعا هادئاً وقد انتعش من توه .

لا يصل الرحالة إلى «بوديا» قبل منتصف الليل . حينئذ يدخل الميدان فينظر إليه الناس كأنه مخلوق غريب . وبوديا بلدة لا يأوى أهلها إلى فراشهم مبكراً ، ويقعد فتياتها في الحانات يلعبون الدومينو دون الالتفات إلى الساعة .

يدخل الرحالة النزل وفي إثره صاحب البغل ، فقد دعا الرحالة رفيقه إلى تناول العشاء معه ، لكن رفيقه يرفض .
- لا تكلف نفسك ، لقد أحضرت طعاما .

يقود الرجل البغل إلى الحظيرة ويقدم له دلواً من الماء وحزمة علف ويخرج طعامه من خرج فيأكل ويتمدد في الدهليز ملتقاً في بطانيتته المبتلة ينتظر حلول الفجر .

لا يحالف الحظ الرحالة في النزول .

- أيمكنني تناول طعام العشاء ؟

- ليس ثمة طعام إلا إذا اشتريت شيئاً تأكله .

يفكر الرحاله في أنه لن يجد إلا القليل في هذه الساعة

- حسن ... سأحاول العثور على بيض ولبن .

تنظر إليه امرأة النزول من أعلي إلي أسفل. يبدو أن الرحالة يترك فيها

انطباعاً بعدم الثقة لأنها تقول له :

- حسن .. لن أستطيع أن أعدّه لك ، لأن هذا لم يعد نزلاً .

يذهب الرحالة مكتئباً وذيله بين ساقيه ، يفكر في عمدة كورك (Cork).

عند الباب يصادف مارتين ، المندوب المتجول الذي تصادقَ معه في تريو .

- توقعت أنك ستهبط هنا ، ولكن بدا لي الوقت متأخراً .

- حسن .. هأنذا بين يديك. أتعرف أحداً هنا يعد لي عشاء أي عشاء ؟

- لا تهتم لذلك ، تعال معي .

ويصطحب مارتين - الرجل الذي يصلح لكل شيء - الرحالة إلى حانة،

وهناك يتكلم مع امرأة الحانة ثم يعود مبتسماً ابتساماً المنصر .

- كل شيء علي مايرام . سأجالسك ريثما تتناول عشاءك .

ويشرح مارتين - الذي علم أشياء عن الرحالة أكثر مما توقع - لسيد

بريطة عنق ظهرت عليه أمارات الغيباء .. من هو هذا الذي قدم لتوه ؟

يستمتع هذا الشخص باهتمام ويومئ برأسه أن نعم. بعد ذلك يلتفت إلي

الرحالة ويقول له :

- اعرف مقدماً ما أنت فاعل ... إنه ذلك النوع من الكتب المبطن باللون الأزرق والذي يحمل شعاراً ويظهر فيه جميع عمد وتجار المقاطعة ... ليس هذا بالشئ الهين ، اؤكد لك !

يشكر الرحالة هذه العبارات الرقيقة بابتسامة . بعد تناول العشاء يدعو الرحالة مارتين ليتناول معه كأساً . يطلب مارتين أنيسون والرحالة كونيكا .

يعودان إلي الفندق ، وعند الباب يقول له مارتين :

- كل ما عليك هو أن تلزم الصمت ، هه ؟

- مفهوم .

يتحدث مارتين مع صاحبة الفندق ، وتنتظر صاحبة الفندق إلي الرحالة . تخرج بعد ذلك ثم تعود لتقول :

- الآن يا سيدي لك سرير .

في الفراش ، لا يستطيع الرحالة أن يصدق كل هذه السعادة ، يدخل سيجارة ثم يطفى الضوء ويتقلب في سريره مرة واحدة ويغلق عينيه لينام .

كان مارتين يقول ، من الفراش المجاور له :

- وإذا وصلت «كمبودى كريبتانا» (Campo de Criptana) اسأل عن «إيبرو» .. قل له إنك من طرفي ، من طرف مارتين ، من الإدارة العسكرية في مدريد، فهو يعرف ..

أغلقت الغرفة بإحكام فهي بلا تهوية ، بلا أية كوة ، كأنها صندوق . لا يستيقظ الرحالة حتي العاشرة صباحاً . مارتين ليس في فراشه ولكنه يعود بعد مضي وقت قصير .

- عدت إلى هنا أكثر من مرة لأرى ما إذا كنت قد استيقظت . لقد خرجت لإنجاز بعض العمليات التجارية البسيطة ، فالرزق يستلزم خفة الحركة . يأخذ مارتين نفساً لواصل حديثه .

- ماذا ؟ هل استرحت ؟

- حسنا يا رجل ، نعم . أنا كالحديد . ليلة أمس كان السأم قد انتابني قليلاً .

- حسنا ، لم التذكر ، لقد مضي إلى غير رجعة .

مارتين رجل صبور بدون أدنى شك .

يخرج الرحالة ومارتين إلى الشارع ويتجولان بالبلدة . يبدو الميدان كأنه قرية عربية . فواجهة مبني البلدية مطلية بالجير وبها رواق بأقواس مليحة الهيئة . تدخل الميدان ثمانية أو عشرة بغال خببا دون أى سرج علي متونها، يقودها فتى ذو قميص أسود ويده سوط طويل . تشرب في بطة في حوض ماء ثم تتمرغ في التراب وقد رفعت سيقانها في الهواء . يجلس شيخ في الشمس تحت الأعمدة . وبوديا بلدة كبيرة منازلها عتيقة، ويبدو أن لها ماضيا عريقا . فللشوارع أسماء نبيلة ورنانة - الشارع الملكي، وشارع صناع الزوارق، وشارع السهل ، وشارع الجمالون، وشارع البرونز، وشارع الخس ، وشارع المستشفى - ومازلت القصور القديمة المحتضرة تحتفظ في شئ من العزة بأحجار عليها شعارات الأسر وبأبوابها الضخمة وبنوافذها الواسعة الحزينة المغلقة .

يذهب الرحالة إلى بيت الطبيب ليزوره . يسكن الطبيب في الميدان ، في بيت من طابقين نظيف ومرتب وأثاثه جيد وبه صور فرنسية علي الحوائط . وطبيب بوديا هو والد صديق للرحالة . ثمة بيانو في بهو المنزل . تفتح له خادم تتشع بالسواد ، ماتزال شابه .

- سأخبر سيدي .. سيسر لأنك تحضر له أخبارا عن السنيوريتو

الفريدو.

لا يتأخر الطبيب . اسمه سيبرينو ، وهو شيخ خفيف الظل ومتحدث لطيف ، يقود الرحالة إلى الداخل ويقدم له بسكويت وشيرى . البسكويت في صندوق عميق من الصفيح ، والشيرى في زجاجة .

- إذا أتينا علي هذا أحضرنا المزيد .

يتحدث الطبيب والرحالة عن البلدة . كان الطبيب قد نشر كتابا عنوانه «بيانات لدراسة طبية طبوغرافية لبلدة بوديا» لدون سيبرينو دومينغث الونسو ، طبيبها الرسمي . طبع الكتاب في وادى الحجاره في ١٩٠٧ فى مصلحة انتيرو كونتشا الطبوغرافية ، ميدان سان استيبان (البريد) رقم «٢» .

يتصفح الرحالة الكتاب ومن خلاله نعرف أن بوديا قائمة علي مرتفع «كويستا كابيئا» (Cuesta Cabeza) وأن الجبلين المسميين «بروبيسوس» (Propies) يستخدمان للرعي واستخراج الحطب . وبوديا قرية بها ماء كثير وإن لم يكن في نفس كمية ماء ثيفوننتس . ويستخدم ماء عين «لاتوبيا» (La Tobilla) في مكافحة الام المعدة ، وماء «العين الجديدة» (La Nueva) للشرب وماء جدول العزلة (La Soledad) لطبخ البقول . أما عين القرن (ElCueme) علي الرغم من انها أفضلها جميعا فتستخدم في رى الأرض لأنه يتعذر نقلها إلي المنازل ، فقد يكلف ذلك مالا طائلاً .

يقدم دون سيبرينو سيجاراً من التبغ الجيد للرحالة .

- المعدة هي مقياس النظام .

- بالطبع .

- من قبل ، كان عمال التراحيل يخرجون مرة فى السنة ويعودون أصحاء ومع كل منهم مائة بزينة - ويضيف دون سيبرينو بنبرة حنين

للماضى - حينئذ كانوا يأكلون كالأنجليز .

الرحالة مسرور . أتعشه الشيرى والبسكويت والتبغ .

- هناك ، يتناول أهل القرى العرق على الريق ويقولون إنه مفيد في
إيادى الديدان .

من نافذة حجرة الطعام المفتوحة ، يتسرب قط أسود ضخم شعره
لامع .

- والقهوة يتناولونها على أنها دواء .

ود الرحالة الجالس على مائدة دون سيبرينو أن يظل هكذا ما بقي له
من عمر .

- لدينا ما يزيد على سبعمائة نوع من الأعشاب العطرية المختلفة .
وقد يكون ذلك سبب جودة العسل .

- بالطبع ..

يغشى الرحالة نعاس خطر . على كرسى طبيب يوديا الهزاز ، تزيد
الراحة عن الحد . نحو الظهرية يخرج مرة أخرى إلى الشارع بنية الخروج
إلى الحقول فى الحال . تسقط الشمس عمودية على الميدان ولا ترى إلا
ظلال رقيقة تحت أجنحة الجمالون . تجلس عجوز على كرسى منخفض
منهمكة فى شغل الإبرة ، بينما يلعب طفل صغير فى التراب إلى جانبها .

يــــــــــــــــك شيخ

بطنه فى الشمس

العمدة والنبيذ

يسيران فى الطريق

تأكل بغضلة

الزهرة الغضة

يسمى رجل العمدة

بالأمهــــــــــــــــق

يشم كلب جائع

الأريج العطر

راهب تياتيني

ودون ســــــــــــــــيرينو

يصر الخبز فى الفرن

من أجل رب البيت

يقع فرخ اليمام

من الشــــــــــــــــرفة

يمر بالميدان شحاذ مراهق وأبله فقد إحدى عينيه . يسير فى أناة
متصليا متصنعا الوقار وتحيط به دستان من الصبية ينظرون إليه فى
صمت . والأبله مصاب بجرح فى رأسه لا يزال ينزف . ثمة مسحة حزن
عميق ، مسحة حزن غير عادية فى كل هيئته . ويمشى جارا قدميه متكئا
على عصا وقد تقوس ظهره وغاص صدره .

بصوت صارخ واه مرتعد ، يغنى الأبله :

مسيح حياتى

مسيح عشقى

افتح لى

جرح قلبك

أطلب امرأة تحمل طفلها على كتفها من باب أحد المنازل .

- خسارة الا تهلك أيها الكلب !

من جدول العزلة إلى جدول إسبولبيدا

يخرج الرحالة من بوديا ، قبل الغداء ، إلى ضفاف جدول «لابيلوس» (Lapelos) الذي يصب في نهر التاجه . كان قد فكر في أن يعود إلى دورون من نفس الطريق الذي صعد منه حتى بوديا ، ولكنه يغير رأيه ويأخذ طريق الجبل ويسلك شعباً أنمحت معالته تقريباً يوصله إلى «الأوليبار» . بعد ذلك سيهبط مرة أخرى إلى دورون ليأخذ طريق السيارات .

وتقع «الأوليبار» على بعد نصف فرسخ من بوديا صعوداً تجاه الجبل . وهي قرية بائسة مفقودة في الجبال ، في أرض تعج بالذئاب وتحيط بها الشعاب الجبلية .

يحتمي أحد الرعاة بقطيع من الغنم في حوض جدول ، وهو رجل في حوالى العقد الخامس من عمره ، فظ لوحته الشمس ، زاهد في الكلام في بادئ الأمر إلى أن يداخله الحماس . اسمه روكى وكان قد اصطاد دلقا بعصاه ، يريه للرحالة .

- كم تعطيني ؟

- أطلب أنت يا سيدى .

- لا .. أنا لا أطلب .

- يطرح الرجل الدلق أرضاً .

- لك أن تحسم أمرك إذا كنت تريده ...

تكفى عشرة بزينات ؟

تتسع حدقتا الرجل من فرط الدهشة .

- أين هي ؟

يخرج الرحالة عملتين من فئة الخمس بزينات ويعطيها للراعى

ويلمس الدلق بقدمه .

- هو الآن لى .

- انتظر حتى انزع فروته وإلا تعفنت .

ينزع الراعى الفروة بمهارة فى غمضة عين . بعد ذلك يشرط لحم

الصدر بالسكين ثلاث أو أربع مرات ثم يلقى به للكلاب التى تلتهمه فى

نهم ، دون توقف ، وهى تزمجر .

والرحال الذى كان قد تزود للطريق فى بوديا يفتح جرابه ويستعد

للأكل .

- هل يمكن شرب هذا الماء ؟

- أنا لم أهلك بعد شربه .

يفتح الرحالة إحدى معلبات السمك المحفوظ ويقدمها للراعى .

- لقد أكلت .

- لا يهم ..

- حسن .

يأتى راعى الغنم عليها ثم يشرب ما تبقى من الزيت . يفتح الرحالة

علبة أخرى وكان قد أخطأ عندما ظن أن علبة واحدة كانت ستكفيهما،
فمكتوب على العلبة الوزن الصافي : ٧٥٠ جم. بعد ذلك ، يشرب قصعة
لبن قدمها له الراعى .

- لا نفتقر أبداً إلى شاة فقدت رضيعها تعطينا لبناً .

ثمة شرفة طبيعية أعلى حوض الجدول يمكن أن يرى من عندها نهر
التاجه .

يصعد الرحالة ومعه راعى الغنم بينما تبقى النعاج تحرسها الكلاب .

- لا يمكن أن تضيع أى منها ، لا تنشغل بذلك ، فأمر القيادة جميعه
يعتمد على القائد .

بينما يصعد الرحالة والراعى يتقايضان قطعة لحم مقعد ببرتقالتين ثم
يتناولان جرعة من نبيذ الرحالة .

- منظر رائع .

- أجل ، هذا ما يقولونه . اسمع ياسيدى ، هل أنت بالمصادفة من
وادي الحجارة ؟

- لا ، لم ؟

- أبداً ، كل من يصعد إلى هنا من أهل وادي الحجارة يقول نفس
الشيء؟.

يتصنع الرحالة أنه لا يسمعه ويشرع فى الحديث عن الجودة المؤكدة
للأراضى التى على ضفاف النهر .

- أجل ياسيدى ، بكل تأكيد ، هذه الأراضى جيدة فعلا ، فهنا الأرض
الفقيرة هى أرض الجبل ، وما إن تهبط السهل حتى تجد أرضاً بهيجة
سخية .

- اوزيرعونها جيداً ؟

- نعم يا سيدى ، نعم ، كما فى أى مكان آخر إن لم يكن أحسن . بينما يهبط الرحالة متحدثا ومدخنا سيجارة مع الراعى يرى عن بعد طفلا مظهره برى وقد استرسل شعره حتى قفاه وصدره عار . يقف الطفل على قدميه على مسافة مائة خطوة . يناديه الرحالة فلا يتحرك ولا يجيب . ينصحه الراعى بأن يحجم عنه .

- لا تلتفت إليه فأنا اعرفه جيدا . فهو من أهل الأوليبار ويدعى ساتور نينو . يجوب الأرض هنا وهناك عله صائد شيئا . وهو صبى مخاتل محتال شديد الخبث ، ففى العام الماضى أوشكت أن أسقطه بضربة حجر بعد أن فقدت حملين رضيعين وفى رأى أنه هو الذى سرقهما .
- وهل هو دائما رهين الجبل ؟

- نعم .. دائما .. كأنه دلق .. فله حتى شعر الدلق .
ولكننى أقول إنهم سوف يروضونه فى الجيش . حسنا ، هذا إذا كان مسجلاً ، فهذا من الممكن الا يكون قد سجل نفسه .

عودة إلى القطيع ، يودع الرحالة صديقه روكى ويخرج قاصداً دورون . ولا ترى القرية حتى يصير على مقربة كبيرة منها . انحرف الرحالة قليلا عن الطريق ووصل القرية ماراً بجبل تراسكا ستبو الذى يمتد أسفله ممر التيرادور الذى كان قد عبره فى اليوم السابق ليلا فى طريقه إلى بوديا . وسفح جبل تراسكا ستبو شديد الوعورة كأنه قطع بمعول .

تمر لحظة يعتقد فيها المرء أنه سيسطيع أن يقفز حتى جبل كاستيودى مارانيا . يجب الهبوط فى هدوء حتى لا تزل قدمه وتتحطم ضلوعه . يجلس فى منتصف الطريق ليستريح بعض الوقت . يجرى جدول العزلة عند ممر التيرادور يسير جنباً إلى جنب مع طريق السيارات ، وعلى ضفتيه مروج صغيرة تحجبها الأشجار تقريباً وهو منظر جميل

كأنه قصيدة رعوية أو كأنه مستخرج من سجادة حائط.

دورون قرية تناثرت في أجزاء ثلاثه ، جزءان منها في سفح الجبل والجزء الثالث - وهو الجزء الأصغر - يقع على حافة الطريق الذي سياخذه الرحالة بمحاذاة البساتين . على أبواب المنازل يرى الرحالة ، مثلما حدث بالأمس ، نفس الجماعة من الرجال والنساء ونفس الكوكبية الكدرة من الأطفال .

ودورون قرية مضيافة وخفيفة الظل وتحسن مقام عابر السبيل ، وهي تبدو طريفة للرحالة ، بل لطيفة . ما اظرف ملاحظة شدة التباين بين أهل بوديا وأهل دورون رغم قصر المسافة بينهما . في دورون يتكلم الناس ويضحكون ويبدون أكثر حفاوة .

- إذا جنثت باريخاً لا تهمل الصعود حتى كاساسانا (Casasana) قريتي .

من تتكلم هي امرأة شابة لطفل له عامان يصعد على عربة كارو تقف على حافة الطريق فيقع فيبكي قليلاً ثم يعاود الصعود والوقوع والبكاء وهو - طبقاً لما يستمع إليه الرحالة من شرح - يقضى طوال المساء على هذه الوتيرة . من حين إلى حين تضربه أمه على مؤخرته ، حينئذ يبكي الطفل بصوت أعلى لعدة لحظات ويجول صارخاً بين الجمع ثم يصعد من جديد إلى عربة الكارو ، كما هو طبيعي .

- أمى تمتلك المنزل هناك . قل لها ياسيدى إنك رأيتنى وإننى بخير وإننا جميعاً بخير . إن أخى عضو فى مجلس بلدية كاساسانا واسمه فايبان غبردا .

سجل اسمه لثلاث تنساه (١).

تتمایل أربع أوست أشجار من الحور النحيفة كالصفيير مع نسيم المساء.

يتحدث شيخ فقد نصف أسنانه ، بنظارته وطايقته وعصاه وذقنه التي لم تحلق منذ ستة أيام وسترته من القطيفة يعلقها على كتفه كمصارعي الثيران ، إلى الرحالة :

- و أنت أيها الفتى ، أتسكن مدريد ؟

- نعم ياسيدى .

- أتعرف راميرو ، الذى يعمل فى معهد الرمى ؟

- لا ياسيدى .

- ولا خوليان ؟

- لا ، ولا خوليان .

ينظر الشيخ إلى الرحالة فى ارتياب كأنه يقول : لا ، هذا لا يأتى من مدريد .

الله وحده يعلم من أين جاء . إذا كان من مدريد كان سيعرف راميرو وخوليان فكل الناس يعرفونهما .

ينظر الشيخ إلى الأرض ويضرب الحصى بعصاه ثم يرفع رأسه ثانية .

(١) تكتب أخت عضو مجلس بلدية كاماسانا أحيانا للرحالة . وتنهى خطاب ٢٤ ديسمبر ١٩٥٩ على هذا النحو : « تميأتى إلى زوجتك وأولادك ، وتقبلها أيضا من زوجى ومن طفلى الذى رأيت ه يضرب على مؤخرته ، ومن هذه التى تقدركم ... كارمن غيردا . » (إن الشيء المثير للدهابة فى خطاب السيدة كارمن غيردا هى أخطاؤها الإملائية الكثيرة والشائعة - كما سنرى هنا فى خطابات أخرى - بين أهل القرى من غير المثقفين - المترجم) .

- كنت فى مدريد فى العام الذى انتهت فيه الحرب وكنت قد ذهبت لإجراء عملية كترأكت - وصحبنى ابنى بكو ، فلم أكن أستطيع الذهاب وحدى .

هو الآن فى الحقل .. إذا انتظرت قليلاً يمكنك معرفته ، لاعتقد أنه سيتأخر .. لم أعد أذهب إلى الحقل .. لا أستطيع .. لقد ظلمت أذهب إليه طيلة أكثر من أربعين عاماً دون أن أتخلف يوماً واحداً حتى انتهيت .
يبتسم الشيخ .

- يأتى الزمن على كل شىء كما ترى . عندما رقدت عاجزاً كان ابنى بكو فى حوالى الثانية عشرة من عمره ، لم يكن قد أتمها بعد . أعطيته أدوات الزراعة وقلت له : هاك العدة ، والحقل أنت تعلم أين هو . وولدى ولد صالح ، فمنذ ذلك الوقت وهو يقوم على كل شىء . أتعلم ياسيدى ؟ أنا وهو نعيش وحيدين فأمه ماتت مولده، وخير لبكيوتو (تصغير بكو) أن يعمل فى أرضه .. حسن .. هذا رأىى .

يشرب الرحالة قصعة من لبن الماعز قدمتها له امرأة^(١) ثم يودع

(١) فى جماعة الرجال والنساء والأطفال التى التقى بها الرحالة فى دورون، كانت هناك أيضاً ابنة أخت فابيان غبردا وهى أخت الطفل الذى كان يصعد عربية الكارو ويضرب على مؤخرته . كانت صبية بين أخريات ولا أتذكرها بالضبط . تكتب لى من حين لآخر . فى رسالتها للورخه فى ٢٢ فبراير ١٩٦٣ كان من بين ما كتبت :-

« ... أما بخصوص ما تقول بأنك لاتعرفنى ، فإنه عندما مررت هنا كنت أنا حيث كنت تستريح على الأرض مستنداً إلى حجر كبير كان هناك ، وكان يصحبتك سيد وسيدة كانا يأخذان صوراً فوتوغرافية للجبال ، وبما إننى كنت فى الخامسة عشرة من عمري ، أتذكر جيداً كل هذا وكنت تتحدث مع أمى ومع الرجل المريض بالكترأكت، ولذا فإنك بالتأكيد سوف تتذكره إذا ما رأيته . وبعد ، فإنى متزوجة ولى ثلاث بنات أكبرهن فى الثامنة من عمرها والثانية فى الرابعة والأخيرة عمرها عامان ، وهكنا فإنى متأهبة تماماً ، فزوجى من عمال التراحيل وهو يعمل الآن فى الكنيسة التى يقومون ببنائها ولكن العمل سينتهى فى يولية أو أغسطس حيث يرغبون فى افتتاحها فى هذا الشهر ، وحينئذ عليه أن يبحث عن عمل لأنك لو رأيت القرية الآن .. أقول لك إننا إن سبعين من أهلها اضطرروا للرحيل عنها لعدم وجود عمل وشيئاً فشيئاً رحل الكثير . -

الناس ويرحل .

جعل الطريق للسير وللجلوس على حافته والحديث مع الناس ، وفي
النهاية يستهوى الطريق من يمشيه . يحل الظلام بعد الخروج من دورون
بقليل وقبل بلوغ نهر التاجة . ويهبط الليل فى سرعة ، وربما قبل الأوان .
عند المفترق ، يطلب زوج من الحرس المدنى أوراق الرحالة .

- إلى أين تذهب فى هذا الطريق وفى هذه الساعة ؟

- أود الوصول حتى بارىخا .

- حتى بارىخا ؟ قد تمضى الليل سائراً .. فتمة ثلاثة فراسخ أو ما
يقرب من أربعة . أنت حر ... أوراقك سليمة .

يسير الرحالة ورجلا الحرس المدنى معا ساعة ، حتى الجسر .

- سنبقى نحن هنا ، كى تصل إلى بارىخا : سر فى خط مستقيم ثم
انحرف يمينا عند أول تقاطع ثم يسارا عند التقاطع الثانى .

- شكرا جزيلاً .

- عفوا .

يجلس ثلاثتهم ليدخنوا سيجارة . ورجلا الحرس خفيفا الظل .
أحدهما شيخ له شارب وله مظهر رجال الحرس المدنى القدامى ، وهو

= لأن الأكل والملبس لا يقبلان اعتذاراً ، وكذلك المصروفات ، ولذا فإِ زوجى يريد الذهاب للعمل
فى الحصاد .. الخ ، .

وتلك الفتاة تدعى ليبرادا ديات غبردا وزوجها ميريانو روميرو كريسبو . عرضت عليها
العمل هنا فى مايوركا التى تعد دائماً ملجأ أميناً لعمال أندلثيا وقشتالة ، ولكن الخطاب المؤرخ
فى ٨ مارس كان أكثر تفاؤلاً ، فغيه تقول : « ... حتى الآن يبدو أن ثمة فرصة عمل ، ولقد
وفعوا أجر اليومية إلى ٩٠ بزيقة لأنهم باعوا الجبل فى البلدية - أرض بـ ٩ ملايين لعمل
٨٠٠ منزل - فالآن إذاً سيكون ثمة عمل .. واليوم أرسل الخرجة المصوقة لزوجتك ... الخ ،
(هنا أيضاً تكثر الأخطاء الإملائية - المترجم) .

يحكى نكاتا جنسية بوقاحة عفا عليها الزمن . والرجل الآخر شاب له
مظهر المخنثين متعقل جاد صموت . قد تبدو هذه الجماعة غريبة
وشبحية في ضوء القمر .

- ايضايك ياتور موتشا ؟ نعم يضايقك .. ساصمت .

تتأرجح نبرة سخريه هازنة مليحة في كلمات رجل الحرس المدني .

- لا ياسيد بيرث .. تفضل .. اكمل ..

ويجد السيد بيرث نفسه مضطرا لتفسير ما قال ..:

- الحقيقة ان الصديق تورموتشا - اتعلم ياسيدي ؟ عاد إليه حماسه
للحركة الوطنية المجيدة فاستبدل خدمة القديسين بخدمة السلاح ، في
رأى كأنه لم يفعل .

يصمت رجل الحرس تورموتشا ، ولكن صمته لا ينم عن شيء من
المواقفة .

- هل قرأت موتش غراثيش (جزيل الشكر) ؟

- أحيانا ...

- يالها من مجلة ويالهم من سفهاء ، واية أشياء يخترعونها .
«وكرونيكا» ؟

- من حين لآخر أيضا .

- كان مقرى حينئذ كرابا نتشل ، وكلما حانت فرصة - هوب ! -
كنت أجرى إلى مدريد وانهب مباشرة إلى تياترو إسلايا ، وتياترو
مارتين ، ولكنني الآن صوت شيخاً .

يمسح رجل الحرس بيرث على شاربه ويأخذ نفسا من سيجارته .

فرجل الحرس ببرث الذى يعلق بندقيته على كتفه ويطلب بطاقة الهوية من المارة هو رجل يعيش على الذكريات .

على مسافة كيلو متر أو اثنين إلى الأمام ، عند المفترق المؤدى الى تشيرون دل رى ، ببسط الرحالة بطانيته ويتخذ له مكانا للنوم على حافة الطريق ، تحت شجرة نبق . ليس الجو بارداً على الإطلاق . الليل ساكن والسما مرصعة بالنجوم .

تصفر هامة على زيتونة وتغنى صرّار الليل بين أشجار الحرشف ، ولا يلبث الرحالة المتعب أن يروح فى نوم هادىء عميق ومجدد للنشاط ..

يستيقظ ومازال الوقت ليلا ، فيشرب جرعة نبيذ ويأكل برتقالتين وكسرة خبز ثم يجد فى سيره ربما أقوى من أية لحظة مضت ، فهو لا يحس بثقل زاده ولا بساقيه ولا بالطريق . ويباغته أول خيوط الفجر على مرمى البصر من باريخا عند أرض وارفة الأشجار بديعة الزرع ، وفى حقل أحمر من الطين ملئء بالبساتين التى يرى من خلالها فى بعض الأحيان مصنع للأجر اجتهد فيه الناس فى أعمالهم .

وباريخا بلدة صناعية وكبيرة تقوم فيها المنازل الحديثة إلى جانب منازل تهدمت ، وبها خان صغير فى ميدانها الرئيسى . والميدان واسع ومربع الشكل فى وسطه عين ماء بها عدة أنابيب حولها حوض ودرارية عتيقة - درارية يسمونها لأنها مستديرة - مترامية الأغصان روم ، درارية عتيقة قد تبلغ فى قدمها مبلغ أقدم حجر فى القرية .

نافورة فى الباحة

ودرارية عتيقة .

ويمر لقلاق

فوق باريخا .

حول العين تجمعت النسوة ليملأن جرارهن وأبار يقهن الفخارية .
وهن يحملن الجرار على مؤخرتهن وأنبوب من « البوص » على
اكتافهن ويستخدمن الأنبوب فى توصيل الماء الساقط من عيون الماء
على إرتفاع متر ونصف تقريبا من حافة الحوض إلى الجرة . ولنساء
باريخا مهارة غريبة فى اقتناص - أوصيد - الماء مباشرة دون أن يسكين
قطرة ماء واحدة .

يدخل الرحالة النزل فهو يريد أن يتناول فطورا ساخنا ، وأن يغتسل
ثم يستريح بعض الوقت . وبالفندق كراسى هزازة تأسر ، وفتاتان
متوردتان مليحتان بدينتان تضحكان بينما تعملان بجد ، ومن مكان إلى
آخر : فتحملان شيئا أو تنظفان مبلولة أو تنفضان الغبار عن الأثاث أو
ترتبان الأسرة أو تمسحان الأرضية . كل هذا فى وقت واحد وفى غير
نظام .. كل هذا فى بهجة . تسمى إحداهن إلينا والأخرى ماريا . بينما
يشاهد الرحالة إلينا وماريا تعملان يلاحظ أن خدرا متفائلا ينتابه . الفطور
لذيذ جدا حقا . تشقشق العصافير على دردارة الميدان أمام الشرفة
المفتوحة المليئة بأصصى الغرنوق ، ويغنى عصفور كنارى أصفر فى
قفصه نافشا ريش رقبته ، وينام قط فى الشمس داخل الحجرة فى ركن
به حصيرة من الحلفاء ويتبول طفل فى عظمة وتحد من شرفة .

يرى من خلال الباب المفتوح صبى كسيح فى الحجرة المجاورة يحرك
يديه بكثرة ، وهو صبى مصاب بالصرع ، وربما كان شبه مجنون
ويجلس على كرسى منخض ولا يتحكم فى حركة ساقيه المغطاتين
ببطانيه . يغمر الرحالة فجأة شعور بتأنيب الضمير .

تصل إلى الميدان ، وسط سحابة من الغبار وكوكبة من الصبية ، حافلة
هزيلة صاخبة وثابة تقف دقائق كى يهبط الناس ثم تمضى فى طريق

إسكاميا (Escamilla) محدثة جلبة وكأنها جنت . بعد لحظات ، وعندما تبتعد الحافلة تماما ، لاتزال حشرجتها تسمع لوهلة حين تصمت عصافير الدرديرة .

كما يصل إلى الباحة شيخ يدق ناقوسا صغيرا . يلتف حوله الناس قيقف الشيخ على بعض الحجارة . فى يده اليسرى أوراق ويشير بيده اليمنى ويحركها كأنه محرض سياسى . ولا يرغب الرحالة الجالس على كرسيه الهزاز فى النهوض ليسمعه ويكتفى بالتقاط شئ مما يقوله الشيخ من وقت لآخر . ولا يمكن للصبي الكسيح - الذى يبدو وقد سئم جلسته - أن يقف ليسمعه ، ولكن بما أنه ليس بالأمر حيلة ، يرضى بوضعه وينظر إلى الباحة بايماءة حسد غبية متوحشة .

وينادى الشيخ - الذى يلبس قلنسوة من القطيفة الخضراء ويطلق احية بيضاء - على بضاعته . له صوت قط أو صوت امرأة ، وهو يصرخ بأعلى صوته كى يسمعه الناس .

وهو ضئيل الجسم محنيه ويبدو يهوديا . يفهم الرحالة خطبة البائع المتجول عن نحو متقطع :

- صلاة عذراء الكارمن والقبر أو ما يستطيعه العشق ! وتانجو البريفادير بياكامبا الرائع و أغنيات المطربتين لا بارالا ولا بلونا ، وأشعار كتبها متهم قبل إعدامه فى مدينة أشبيلية اسمه بيثنتى بيرت ، بواق هافانا .. أحس أن حبك يولد فى عندما أعلم أنك ستعود .. آخرها مؤلفات ثليا غامث ، فظائع مرغريتا ، من مواليد تماريتى .. بخمس .. اشتر أغنية الموسمة الرائعة بخمس ...

يرسل الصبي الشاذ بإشارات إلى الرحالة حتى يلتفت إليه ، فيقول له : ماتريد ؟ لكنه لا يفهم ماذا يريد ، لأن الطفل لا يستطيع الكلام تقريبا .

عندما يصل إلى كرسية يسأله الصبي في تلعثم وفي صعوبة شديدة :

- اسمع يا سيدى ، هل هذا الرجل من هنا ؟

- لا يا بنى .. هو ليس من هنا بل من بريغو .

- هذا ما بدا لى ، فلم أكن قد رأيت من قبل .

يمر لقلاق طائرا على ارتفاع منخفض فوق الدردارة .

- اسمع يا سيدى ، هلا اعطيتنى سيجارة ؟

- خذها .

- اسمع يا سيدى ، إذا جاءت أختاى ورأيتا الدخان قل لهما إنه دخان

سيجارتك هه ؟

- حسن ..

يحمل طائر اللقلاق ثعبان ماء فى مقاره ويختفى خلف المنازل .

وباربخا قرية يتحمس أهلها للأفكار الجديدة . فقد زرع ثرى منذ عامين أو ثلاثة أرضه فاصوليا بدلا من الشعير ونشر إعلاناً قال فيه : إن كل من يرغب فى العمل لديه فى زرع الفاصوليا سيدفع له عشرين سنتيما لكل ضربة فأس . وتعنى ضربة الفأس والحفرة نفس الشئ، وفى كل خط تضرب ست ضربات .

كما عرض أيضا سنتيما واحداً لكل ضربة تضرب لعزق الأرض وتخليصها من الأعشاب الضارة .. وعندما جاء موعد الحصاد وراجع حساباته اكتشف أنه صرف ثلاثين ألف بزيتة وأخرج فاصوليا بقيمة ألف .

عاد اللقلاق محلقا فوق شجرة الدردار فى الاتجاه المعاكس .

فى ساعة الغداء ، أكل الرحالة بشهية وأكل كثيراً . وإلينا وماريا ربّتا

بيت ممتازتان . وكان الرحالة قد أكل حساء الثوم وبيضتين محمرتين
وسمكا مقليا تحرق قليلاً وفخذ خروف وسلطة طماطم وخس .

بعد ذلك ، يتحدث الرحالة بعض الوقت مع إلينا وماريا . إلينا وماريا
فتاتان مجدتان وأميتان وصحيتا البدن والروح ورقيقتا الحاشية وطلقتا
الحيا وباديتا الحسن . وإلينا وماريا بلا أدنى شك مكسب طيب لأى رجل .
إلينا تحب المطبخ وماريا تحب الأطفال . إلينا تفضل الرجال السمر وماريا
تفضل الشقر . وإلينا تحب الرقص فى الباحة وماريا تفضل التنزه فى
الغوطة . إلينا تفضل الكلاب ، وماريا القطط . وإلينا تحب الخروف المشوى ،
وماريا تحب عجة البيض الفرنسية . وإلينا تحب القهوة ، وماريا لا تحبها .
وإلينا تحب قراءة الجرائد لكن ماريا لا . وماريا تحب قراءة الروايات التى
تحكى قصة الفتاة الريفية الجميلة التى تتزوج من الدوق الشاب الوسيم
وينجبان البنين والبنات ويعيشان سعيدين فيوقدان المدفأة فى الشتاء
ويفتحان الشرفات على مصاريعها فى الصيف .

بينما يستمع الرحالة إلى إلينا وماريا يفكر فى تلذذ ، فى مسألة تعدد
الزوجات . الجو معتدل ومعدته متخمة بأطعمة نبيلة وعريقة ، بطعام
تاريخى وعتيق كساحات المعارك . ولولا انه كان قد عقد العزم على الا
يبعث ليلتين متتاليتين فى قرية واحدة - وليس ثمة أو لا يجب أن يكون
ثمة ما يثنيه عن عزمه - لكان استقر فى باريوخا ولما تحرك من هناك ما
تبقى من أيام عمره .

ثمة احيانا إحساس خطير يرغد العيش قادر على أن يهد جبالا وتجب
مكانحة هذا الإحساس بشجاعة كما لو كان الإنسان يكافح عدوا . بعد
ذلك ، بمرور الوقت ، نشعر بهذه الأحاسيس كقطرة من عصارة الصبار
فى القلب .

ينتهى الأمر بالرحالة إلى أن ينام فى كرسيه الهزاز فى سعادة غامرة .
تركته إيليا وماريا الحصيقتان لكن الرحاله يحس بهما فى نعاسه وهما
تتحارثان - إيلينا بصوت كصوت الصبى ، وماريا بصوت طفلة - عن
هواياتهما وهمومها الرقيقة وعن الغلاء الذى أصبح عليه كل شئ.

عندما يصحو تكون الشمس قد آلت إلى المغيب وسقطت الظلال الأولى
على دردارة الباحة. يبدو أن الرحالة نام ساعات طوالاً. يشعر بارتعاد
فرائصه قليلاً فينهض ويغلق الشرفة .

بعد ذلك يجلس من جديد ويدخن سيجارة . لا أحد يمر والحجرة
معتمة تماما تقريباً . يخرج إلى المعر ويصفق بيديه مرتين فيفتح باب
المطبخ ويضئ بسطة السلم تماما ويسمع صوتا يقول : حاضر. أطلقت
الصوت إيلينا بينما تذهب إليه ماريا .

- اكنت تنادى ياسيدى ؟

- نعم يا ابنتى ، أين الضوء ؟

- هناك ، لكن انتظر يا سيدى ، ففى هذه الحجرة ليس ثمة مصباح .

يصمت الرحالة وتصمت ماريا . وكانت ماريا قد قالت «فى هذه
الحجرة ليس ثمة مصباح» بحزن عميق بل إن صوتها كان يرتعش قليلا .
يبتسم الرحالة وتعود ماريا إلى المطبخ يحتار الرحاله فى أمره للحظات ،
وعندما يبلغ المطبخ يجد ماريا غارقة فى دموعها جالسة على مقعد واطئ
إلى جانب الموقد. وإيلينا تقشر الآن بصلة وتنظر إلى الرحالة نظرة شرسة
لامراء فيها . فتلمع عيناها كان بهما حمى وينتفض صدرها بعنف.

- مانا قلت لأختى ؟

وصوتها الذى كان من قبل حزينا جميلاً يدوى الآن برنين معدنى

كريبه .

.. أنا ..

تقاطعه إلينا ولا تدعه يتكلم .

- خذ يا سيدى جرابك وارحل فى الحال . الحساب أربع عشرة بزيتة

توجه الرحالة مغموماً إلى مصنع قرميد لينام هناك ، على ضفاه
جدول إمبولبيدا، ووجد ثمة رجلاً يعيش وحيداً ، رجلاً لا يعرف المراوغة

- آت أنت بنية طيبة ؟

- بأطيب نية فى العالم ، أقسم لك .

- أمعك سلاح ؟

- لا ياسيدى ، فقط سكين الرحلات هذه . وأحملها معى دائماً لوعده

قطعته على نفسى .

- خلها معك ، فهذه السكين لا تقطع شيئاً .

- شكراً .

- لا تشكرنى على هذا ، أسنصبح صديقين ؟

- هذا ما أبحث عنه .

- انتظر إنذاراً لحظة لتشرب جرعة خمر .

أنزل الرجل قربة النبيذ الصغيرة المعلقة على الحائط .

- تفضل ..

- أنت أولاً فأنا رب البيت .

شرب الرحالة جرعة من نبيذ خشن مفرط فى الحلاوة ثم أعطى

القربة للرجل .

- اسمع يا سيدى ، أنا لا أحب أن أسأل أكثر من اللازم لكن لم تمكث فى القرية ؟

لا يعرف الرحالة بم يجيبه ويداريه الحقيقة .

- حسن .. كما ترى .. مجرد نزوة .. لقد سنمت قليلا القرى والفنادق .

- حسن ، لدينا هنا فندق ممتاز .

- فى بارىخا ؟

- طبعاً يا رجل هنا وليس فى مدريد بالطبع . النزل الكائن فى الباحة يشتهر بأنه مكان طيب جداً ...

الرحالة ينظر إليه .

- أجل ، هذا ما قيل لى .

عاود الرجل الضحك ثم رشف جرعة من النبيذ ثم تنهد .

- حسن .. ما بوسعى أن أقول ؟ .. يقولون إن كل شئ جميل فى الحب . إن إحدى فتاتى النزل ، ماريا - من المؤسف ألا تعرفها - ستقترب منى فى الربيع إن شاء الله . وأنا أترقب الموعد ، فلك أن تتخيل نومى هنا ، بينما يمكننى النوم فى النزل .

فى ضوء القنديل ، بدأ محياه محيا رجل سعيد الطالع . وبدأ ساكن مصنع القرميد ، وقد عمر خياله بالمشروعات الذهبية ، ملاكا ضخماً فظاً يحتسى نبيذاً أحمر : ملاكا صغيراً حبهته القدرة نورا داخلياً .

- حسن ، فلتكونا فى أتم سعادة .

- شكراً ، هذا ما أتمناه .

كاساسانا - كوركولس - سائيدون

من باربخا إلى سائيدون يؤخذ نفس طريق السيارات الذى جاء منه الرحالة فى اليوم السابق ولكن فى عكس الاتجاه . وعند بلوغ المفترق ، وقبل أن يصب جدول إمبوليدا فى نهر التاجه بقليل ، يجب الانحراف يساراً ، نحو الجنوب لبلوغ طريق وادى الحجاره - كوينكا فسا ثيدون تقع بعد السير فى اتجاه كوينكا بقليل .

كما يمكن أيضا الذهاب من الناحية الأخرى ، أى معطيا ظهره لنهر التاجه ، ومروراً بإسكاميا وميانا (Millana) بمرتفعات اليانو (El Llano) ، حتى بلوغ طريق السيارات عند الكوثير^(١) حينئذ يمكن المرور على

(١) بعد الكوثير ، بعد الانحراف مرة أخرى بعيداً عن طريق السيارات ، تقع قرية بالداوليبس (Valdeolivas) اهدانى صديقى المثال أنخل فيرانت مرة رسالة تاريخية - رسالة كتبها رجل ابتلعه التاريخ وإن كان ذلك لا يمنعه أن تكون تاريخية - يحكى فيها صاحبها وقعة وقعت له فى فندق الكوثير مع فتاة من بالداوليبس نزاعة إلى المتعة الجسدية . وأنا أنسخها هناك كتحة أديباً صغيرة لها دلالتها (الإسبانية) وكإرشاد للجميع ومتعة لهواة الصبايا والأدب : بابيكس فى ٢٠ ديسمبر ١٨٩٧ .

صديقى دون خوسيه: أعلم يا سيدى أنى عدت سالماً من رحلتى حمداً لله .

كنت فى تنديا (Tendilla) مع المدعو روخس ، وقال لى إنه ينتظر فتى من بياردى لاسرون وأنه لن يلتزم بأى شىء حتى يرى ما كان من شأن هذا الفتى . وأعلم يا سيدى أنه فى اليوم الذى وصلت فيه الكوثير توقفت فى الفندق الذى تلقى عنه السيارة فما لبثت أن جاءت فتاة من بالدو لى لىبىس عادت لتوها من مدريد وجلست تحت الخشوع عند قدمى . فشرعت فى تناول عشائى فأخرجت هى طعاماً وبدأت فى تناول عشائها أيضا . انتهينا من العشاء

وسألت صاحبة المنزل عن سرير انا م عليه . فتتب هي قائلة (وأخبر لى) ، فتجيب امرأة المنزل بأن عليكما أن تناما فى غرفة واحدة لأنه لا توجد إلا هذه الحجرة فى الطابق العلوى التى ننام فيها نحن عادة ، وأقول هنا حتى لا تتهمنى الفتاة بأنى لم أنبئها . فتتب الفتاة خالعة العذار وتقول : اعتقد أن هذا الرجل لى يصيبنى بمكروه . قالت هذا ضاحكة ، فقلت لنفسى : الا تكون هذه من بنات الهوى ؟ صعدنا إلى الطابق الأعلى فرقدت فى فراشها وأنا فى فراشى وكان السريران فى مواجهة بعضهما البعض ، ولم يعنهما الحياء أو أى شئ من هذا القبيل من التمرى أمامى . أطفأت الضوء بينما كنت فى فراشى أكاد أجن متحيراً فى امرى أهى من بنات الهوى أم هى شريفة ؟ قمت من سريرى وذهبت إلى حيث كانت والحقيقة أننى تلمست طريقى فى الظلام واصطدمت جيحتى بالسرير . بلغت فراشها وعثرت بوجهها وهى ساكنة ثم نسست يدى وتحسست ركبتيها وهى ساكنة ، وعليه فقد قلت : لتذهب إلى الجحيم ورفعت ملابسى ورفقت معها وقضينا طوال الليل كالزوجين . وهكذا قضيت ليلة سعيدة معها ولكنها قضت على سعادتى بأن سرقت ثلاث قطع نقود من فئة خمس بزيقات من جيب صدارتى ، فقد كنت قد غيرت ورقة نقدية فكة لشراء تبغ ووضعت النقود فى الصدارة فجردتتى القحبة من ثلاث قطع كانت بها . ربما تعرفها بالصادقة فهى من بالد أو لسبيس وليس لها أب وقالت إنها زاهبة إلى القرية لرؤية أمها المريضة .

ويعد ، يا سيدى ، فأنت تعرف أين أقيم ، فأنا أقيم فى باييكس واتقاضى خمساً وعشرين بزيته فى الشهر إلى جانب حق المسكن والأكل وغسيل الملابس ، وبعد فتجدى رهن إشارتك فى أى وقت وأنا كنت فى حاجة إلى فما عليك إلا أن تكتب لى . إننا كنت تعرف بالمصادفة قرية معينة فننكرنى ، هذا كل ما أود أن أقوله لك . فيما عدا هذا ، سلامى إلى المعلمة وبقية العائلة من صديقك الذى فى خدمتك .

مانويل مارتين

ملحوظة :

العنوان كى تكتب لى إن شئت : السيد الاستاذ مانويل مارتين ، مقاطعة مدريد ، شارع ريال دى أرغندا رقم (٩٠) (فى باييكس) (هذه الرسالة أيضا مثيرة للدعابة من حيث طريقة كتابتها ، فى غياب الترفيم بها وكثرة الأغلاط الإملائية وبعض الخطأ فى تركيب الجمل مما يجعلها صعبة القراءة . عند الترجمة حاولت نقل كل ما بها من معان والمحافظة على

إما إذا أريد الذهاب إلى ساثيدون - التي تتأخر قليلا في الظهور فيتحتم

أسلوب يكتب به شخص بسيط . ولكنى لم التفت إلى نقل الخطأ سواء الإملائي أو
الأسلوبي لاستحالة ذلك منطقيا - المترجم)

وفى هذه البقعة من إسبانيا أيضا ، وإن لم أذكر القرية وغيرت أسماء أشخاص الحكاية ،
كان ثمة كاهن - نون سالو ستيانوويردوغو ، قس - كتب رسالة تعد نموذجا للنثر
المشعث . بعث بها إلى محام من مدريد قارئ لى (ليس صديقا شخصيا) ومكلف بالدفاع
عن أحد اللصوص يشار إليه فى الرسالة ، برجاء وحيد بأن اغير الأسماء والأماكن ، وارد
على كرمه بالطاعة طبعاً كما هو منطقي . تقول الرسالة :

« ن ، فى ٧ أغسطس ١٩٦٠ .

السيد قس وخورى كنيسة السيدة عذراء كوبانويفا - مدريد .

أخى فى الكهنوت : ردا على رسالتك بشأن موضوع كيبيتانو الشهير . قل لابنة
إبرشيتك إن سلفى نون مارثيلينو قد مات وكذلك أمه وإنى أخلفه فى الأبرشية منذ
عامين . (والقرى) المسمى كيبيتانو كنت قد عرفته بالمصادفة قبل أن أكون قسا فى سجن
وادي الحجارة إلى حيث كنت أذهب لأشرح تعاليم الكاثوليكية ، وعندما قال لى إنه من
قرية .. (قرية قريبة من قرىتى) وضعت ذلك فى اعتبارى وهو بائس وكما تقول أنت
(سكير ومقامر وزير نساء فضلا عن أنه لص) مصيبة .. وعندما جئت القرية أوقفته عند
حدوده حيث كان يكلمنى بصفة الند لأنه كان قد عرفنى أيام كنت لدرس الكهنوت وكنا
نسمع للمساجين بأن يتأدونا بأسمائنا حتى نتخلص من الحواجز بيننا . ومنذ أيام وهو
على اتصال غير شرعى «بشخصية» تدعى ليثيا أو ليتيثيا (قله لزوجه البائسة) وسط
سخط القرية والأبناء والزوج الذى كان يعمل فى الحصاد فى مدينة ثيو داد ريال وهما الآن
يعبتان بغيا به وهى لا تقل إثما عن كيبيتانو .

وكما ترى فإنه يحيا لتعاسة زوجته فيقولون إنه نسيها وإنه يفكر فى المطالبة بأبنة
(الذى يعيش فى مدريد) للاستفادة منه (أعتقد) ، وإخوته ما يزالون على قيد الحياة ،
أكبرهم متزوج فى فرنسا والبقية هنا ، يسمونهم «الإخوة» ويسمون كيبيتانو هذا
«الخطاف» وهو شخص يقض مضاجع أهل القرية ، وغير مرغوب فيه ولص يعيش
رسميا وحده فى منزل حقير وأحيانا مع أصدقاء غير متزوجين ويعيش على صيد الأرناب
غير المشروع ويبيعها أو يأكلها أو يتسول .. إلخ .. فهو مصيبة . ولك أن تتخيل حال هذه

لزوجة البائيسة التعيسة . وأعتقد أن الحل الوحيد الممكن هو الشروع فى إجراءات الانفصال قضائيا والا يأتى ابنه أملاً أنه سيجد عطفاً من أبيه ، إلا إذا جاء وأراد أن يواجه أباه بالحقائق فى حزم وأعتقد أنه سيسمعه لأنه شقى وليس لديه ما يقوله على سبيل الاعتراض ، ولكن ليس من وراء هذا كله أية فائدة .

أحيانا أراه يحوم حول القرية ومن بين آلاف الحالات أقول لك إنه كان من الخسة إلى حد لم يتورع معه عن سرقة الخنازير ونهبها وتليحها وحفظها فى مستودع بالمقابر التى تستخدم فى حالة قرية كهذه - قليلة السكان - مرة كل مائة عام ، وفى أحد الأيام دفع الفضول أطفالا أبرياء إلى هناك قرأوا ذبائح كيبيتانو التى يقولون إنه يقدمها رشوة لسلطات .. (الدائرة القضائية) . وفى أحد الأعوام كان قد تحالف مع رهط من الأشرار ، وفى أحد الأيام أقنع أحدهم بدخول حظيرة خنازير فى أحد الحقول على ألا يخرج منها حتى يعود بالطعام من قرية مجاورة ثم أبلغ الحرس المدنى ، وعندما جاءوا وأعطوا الأمر بإطلاق النار على من بداخل الحظيرة قام هو بتنفيذ الأمر خشية أن يأخذوا اللص حيا فيعترف ضده .

كفاك الله اهتمامك الذى أرى أنك تقوم به تجاه تعساء هذا العالم والذين لا يجدون ملجأ أرخص من بر رعاة الكنيسة . ولقد مات والد كيبيتانو منذ فترة لنا فصدق يا سيدى كل ما تقوله لك دولوريس لأنهم يقولون هناك إنها امرأة صالحة لو ما يفهم من العامة بأنها صالحة ، ولا أعتقد أنها تبالغ عندما تحكى ظروفها التعيسة .

أخوك فى الكهتوت

«سالوستيانو بروغو»

ولم يكن السيد سالوستيانو على علم بالأحداث ولم يكن يقف إلا على مفامرات طرف واحد من الطرفين المتعاقدين . فأكمل النقص بخطاب المحامى :

«مايجله الموقع على الرسالة هو أن دولوريس عاشرت رجلا آخر (توفى) معاشرة الأزواج وأنجبت منه ولدا (هو الآن حديث السن) وأن الابن الأول الذى حاولت الرسالة منع وصوله إلى أبيه هو الآن فى السجن بعد محاكمته فى ثلاث قضايا مختلفة بجرائم ضد الممتلكات .

أما القرية التي لا يوصل إليها أى طريق فهي كاساسانا . فمن بارياخا إلى كاساسانا ليس هناك لا طريق لسيارات ولا طريق دواب فيجب صعود هضبة وعرة من خلال شعب للماعز اختفت معالمه .

ولا داعى إلى أن نقول أن الرحالة بالطبع سار فى طريق كاساسانا . كان لابد أن يحيى فابيان غبودا ، أختا المرأة التي التقى بها فى دورون . وكاساسانا قرية ارتقت جبلا ، مرتفع لا بيليتا (La Veleta) ، ولكن من الناحية الأخرى ، الناحية التي ينبسط فيها الجبل شيئا . ولا ترى كاساسانا حتى يصل إليها . وهي قرية صغيرة قليلة الزراعة وفيرة الماشية فيها مايربو على ثمانين بقرة . وكاساسانا هي الضيعة الوحيدة فى إقليم القرية التي وجد فيها الرحالة أبقاراً هولندية بيضاء وسوداء تدر الحليب كأبقار سانتدير (على الساحل الشمالى الإيبانى - المترجم) .

وكانت الأبقار نحيفة عامة ، ولكن يلاحظ من الوهلة الأولى أنها من سلالة جيدة .

ويبدو لى شخصيا أن دون سالوستيا نوبروغو ، القس ، متخلف عقليا وقاس ومتعجرف ، فكيتانو ، الخطاف ، لم يكن إلا بانسا وفريسة يتيمة ومضطهدة وقادرة - كذئب الجبل - ملائكيا على ارتكاب أكبر الفظائع التي ترتكب نائماً بطبيعية . وتطبيق عقلانية ، أو منطق العقول التي نصلح على أنها عادية على من يولدون ويعيشون ويموتون فى ظروف غير إنسانية ، هو خطأ اعتاد أن يقع فيه بكثرة القضاة والمؤرخون . ضد المبدأ الباطل - أو الخيالى - القائل بأن كل الناس متساوون أمام القانون ، أجهز بأن هذا الإعلان لا يمكن أن يأخذ على أنه إعلان بديهي حتى تتساوى أيضا لكل الناس إمكانيات ظروف حياتهم ، وهو وضع أعتقد أنه مازال بعيداً . لو أن الدول لديها المرونة التي تقتقر إليها الآن لعد القضاة فى عداد أطباء الأمراض النفسية (لأن اكتساب حرفيات العمل النفسائى هو أمر فى متناول الجميع) .

والشعب الذى يرتقى حتى كاساسانا - شعب روبيليخيلا (Roblegila) هو شعب ملعون وملئ بالحجارة وصخرى وشديد الانحدار . الشمس حارقة ويثقل حمل الرحالة فى غير ضرورة أو مناسبة . يتعبه الصعود ، وفى منتصف الطريق يفكر الرحالة الذى يتصعب عرقا فى أنه من الأفضل التوقف وتجديد النشاط . يجلس راع تقدم به العمر فى الشمس وقد تدثر جيدا ببطانية حتى قمة رأسه . يقترب منه الرحالة :

- صباح سعيد ..

- وبارد يقضل الله .

- بارد ؟

- دع السير وسترى .

من هذا الارتفاع ، ومن حيث لا تُرى بعد كاساسانا ، يرى منظر عام رحب وبهى . وهو متنوع مابين الأحجار الضخمة العارية والخضرة غير الكثيفة القريبة وأراضى بارىخا الحمراء والبيضاء فى السفح وضفاف نهر التاجه الخضراء إلى اليسار بعيدة جداً .

هناك بالفعل يهب نسيم عليل يقشعر له البدن يحسه الرحالة الذى لا يلبث أن يواصل طريقه . سرعان ما تلوح كاساسانا بعد صعود آخر ربوة .

مـــــــرج

وحقل زيتون

قـــــــرمزى

لـــــــون الزعتر

ولا تتحرك

كانها أمام المذبح

- أه يا كاساسانا
الجبية
والصبية الغضة -
الجباد
التي ترعى

ولون كاساسانا رائع بين الأخضر الداكن والرمادي المائل للزرقة .
تجلس صبيتان فى الشمس ترعيان بقرة على أعتاب قصر عربى عتيق
تستخدم إحدى وأجهاته فى لعبة الكرة الباسكية (١) عندما يمر الرحالة
تنهضان وتمنعان النظر إليه بعيون شاخصة شاردة . ترتديان ملابس
فقيرة ولهما عيون سوداء عميقة تنضح سحراً ونبلاً . يسأل الرحالة عن
أشياء يعرفها :

- اسمعا أيتها الصبيتان ، هل هذه قرية كاساسانا ؟

- نعم ياسيدى . أية قرية ستكون ؟

تمر امرأة .

- اسمعى يا سيدتى ، أين النزل ؟

- فى كاساسانا ليس لدينا نزل ياسيدى .

وللمرأة أيضاً عينان وشعر بلون الفحم وجمال بدائى على النسق

القديم ، شأنها فى ذلك شأن كل نساء القرية .

(١) لعبة شبيهة بالاسكواش وإن كان لاعبو الكرة الباسكية لا يستخدمون مضارب ، كما أن كل

فريق يتكون من لاعبين . وحائط اللعب فيها أعرض وأعلى من حائط الاسكواش .

تشيع اللعبة فى إسبانيا وبعض الدول الأخرى . فى حالة استخدام مضارب يكون شكلها

على هيئة ثمرة الموز - المترجم .

- فى دورون التقيت بواحدة من كاساسانا، متزوجة هناك ، قالت لى
أن أسأل عن امها . أخوها عضو فى مجلس البلدية .

- كارمن غبردا ؟

- نعم .

- حسنا . سأريك الطريق . فأمها صاحبة المنزل .

والرحالة الذى كان قد اكتشف أن كلمة (Mesón) غير معروفة فى
الإقليم ، يعرف الآن كيف يفرق بين الفندق (Parador) وبين المنزل (Posada)
فالفندق به حظيرة دواب . فى كاساسانا نزل وليس بها فندق . ترحب
والدة كارمن غبردا بالرحالة بشئ من التحفظ . فى القرى اعتاد الناس
الاحتفاء بعابرى السبيل ولكن بشئ من البرود . لقد أخذوا عبدة ولا غبار
على ذلك . فمنهم من جا؛هم يطلب طعاماً وشفقة - وكيس لوبيا لزوجته
المريضة ، لوجه الله - ثم كشف عن هويته كمأمور ضرائب وحرر
محضراً .

فابيان غير موجود بالمنزل ، فقد خرج إلى الحقل . وتثبت حقول
كاساسانا - إلى جانب أشياء أخرى مثل الحنطة والشعير والسلت
والشوفان والفاصوليا والحمص وجميع المحاصيل الأخرى وإن كانت
بكميات ضئيلة - زيتونا صغيراً لذيذ الطعم يشتهيها الناس . يبحثون عن
فابيان غبردا فيحضر فى الحال . هو رجل شاب قصير القامة ونحيف
ومفتول العضلات وخشن ، ويدها «كماشتين» وهو لطيف وبشوش
ولا يدخن ولا يشرب الخمر . فى كاساسانا ثمة العديد من الفتيان لا
يدخنون ولا يشربون الخمر . يفكر الرحالة فى أن هذا ليس شائعاً فى
إسبانيا (١) يغتسل الرحالة عند باب المنزل ريثما يعدون له الطعام . من

(١) فى السادس من يولية ١٩٥٨ ، كتب لى فابيان غبردا : «أتواجد الآن فى وادى الحجارة فى

خلال جدار داخلي ، يسمع غناء البنات في المدرسة .

ومدرسة كاساسانا مدرسة رهيبة شديدة البؤس . فالمقاعد العتيقة مليئة بالرقع والأجزاء المرممة ، ويمتلئ السقف والحوائط ببقع الرطوبة وبلاط الأرضية يتحرك في مكانه ، فقد ثبت على نحو سيئ . وعلق على الحائط صليب وخريطة لإسبانيا بالألوان وهي إحدى تلك الخرائط التي يوجد في جزئها الأسفل مربعات صغيرة بها جزر الكناري ومحمية المغرب ومستعمرتا نهر الذهب وخليج غينيا . ولإضافة كل هذا إلى خريطة لم تكن ثمة ضرورة في الحقيقة إلا لركن واحد صغير . في أحد الأركان ثمة علم إسبانيا .

بيت صديق حميم ، عريف أول في الحرس المدني ، كان يعمل في باروخا التي تنتمي كاساسانا إلى دائرتها . سادخل المستشفى مساء اليوم لأجري غداً إن شاء الله عملية جراحية في كليتي اليمنى وأعتقد أنه ليس أمراً خطيراً رغم العملية .. إلخ «والخطاب مكتوب على الآلة الكاتبة وليست به أخطاء إملائية ، ربما كتبه صديقه العريف . كتب لي في يوم ٩ ، ١٠ ، ١١ . ن . براوليو أتينا غارثيا ، عريف أول في الحرس المدني ، الذي كنت قد طلبت منه أخباراً عن صحة فابيان : (تلقيت خطابك الرقيق في هذه اللحظة وأرد عليه لأخبرك بحالة صديقنا العزيز فابيان . انتهت العملية الجراحية في الثانية والنصف من بعد ظهر يوم ٧ . استأصلوا كليته التي كانت كبيرة الحجم جداً ومليئة بالصديد تاماً .. إلخ»

وفي يوم ١٨ ، كتب لي فابيان من قريته : «اعلم أنني وصلت بيتي يوم ١٦ وأنا بفضل الله بصحة جيدة جداً مقارنته بما مررت به» وفي الثالث من مارس من العام التالي ، أبلغني العريف أتينا بوفاة فابيان : «بلغني اليوم النبأ الحزين بوفاة صديقنا فابيان غبردا غورثالث (ليرفد في سلام) وهو وإن سبب لي مفاجأة الآن إلا إنني كنت أعرف مسبقاً أن حياته ستكون قصيرة ، لأنه منذ شهرين كان قد جاء لعرض نفسه على الأطباء وأقام في بيتي ثم أرسله الطبيب إلى كاساسانا ، بكل تأكيد ، كي يلقي ربه هناك عندما تحين ساعته ...» .

بالفبينان غبردا البائس : ذلك الشاب المخلص الوطني الذي كان قد ودع الرحالة دون أن يدرى أي منهما أنه كان آخر وداغ بينهما ، عند غوطة بالدلوسو (Valdeloso) على مشارف قريته .

على مائدة المعلمة كتب وكراسات وكوبان من زجاج أخضر غليظ
بهما زهور برية صغيرة صفراء وحمراء وبلون الليلك . والمعلمة التي
ترافق الرحالة فى زيارته للمدرسة فتاة مليحة لها هيئة أهل المدن وتلونت
شفتاها بلون أحمر الشفاه وترتدى فستانا منقوشا أنيقا . تتحدث عن
التربوية وتقول للرحالة إن أطفال كاساسانا طيبون ومجتهدون وأنكباء .
فى الخارج ، تنظر جماعة من الصبية إلى داخل المدرسة فى صمت وقد
علت عيونهم الدهشة . تنادى المعلمة طفلا وطفلة :

- أنتيها .. كى يراكما هذا السيد .. من هو مكتشف أمريكا ؟

يتلجلج الطفل .

- كريستوفر كولومبوس .

تبتسم المعلمة .

- والآن ، أنت .. من هى خير ملكات إسبانيا ؟

- إيسابل الكاثوليكية .

- لم ؟

- لأنها كافحت ضد الإقطاع والإسلام ، وحققت وحدة بلادنا ونشرت

ديننا وثقافتنا فيما وراء البحار .

وتشرح المعلمة للرحالة فى سعادة:

- هذه أفضل تلميذاتى .

وتقف الصبية فى جدية شديدة وقد تقمصت تماما دورها كطالبات

متفوقة . يعطيها الرحالة قرص قهوة بالحليب وينتحى بها جانبا

ويسألها:

- ما اسمك ؟

- روساريو غونثالث فى خدمة الرب وخدمتك .

- حسن .. فلنريا روساريو ، أتعرفين ما هو الإقطاع ؟

- لا يا سيدى .

- والإسلام ؟

- لا يا سيدى ، هذا لا ندرسه .

تتخرج الطفلة وينهى الرحالة المساءة .

يتناول الرحالة غذاءه مبكراً ، فى حدود الحادية عشرة ، ثم يذهب إلى حانة ، إلى واحدة من الحانات النادرة فى كاساسانا، ليتحدث مع بعض الرجال الذين توقفوا لحظة عن العمل .. وأهل كاساسانا مجدون فى أعمالهم لدرجة أنهم يلقبون بالمقرفصين لأنهم كى يتمكنوا من الاستيقاظ مبكراً والذهاب إلى العمل دون تأخير تقول الشائعات إنهم ينامون جالسين القرفصاء .

يبحث الرحالة عن رجل لديه دابة ليحمل له متاعه حتى سانيدون وبعد حسابات كثيرة ويعد نهاب وإياب يصل إلى اتفاق مع شاب يدعى فيليبى الخياط . وفيليبى ليس خياطاً ولا أبوه ولا جده ولكن الحقيقة هى أنه فى القرية - والله وحده يعلم لأية أسباب خفية - لا يعرفه أحد إلا باسم فيليبى الخياط . نحو منتصف النهار يخرج الرحالة ومعه فيليبى الخياط والحمار لوثيرو محملاً بالأمثلة من كاساسانا لياخذ طريق تشيناروس (Chinarrés) الذى سيوصله إلى كوركولس (Córcoles) يرافقه فابيان غبردا وثلاثة أو أربعة أصدقاء آخرين حتى غوطة بالدلوسو ، على مشارف القرية .

الطقس رائع ، تنتابه بعض الغيوم وليس شديد الحر . وينطلق الرحالة فى سرور بعد أن تخلص من حمل متاعه .

ويمضى طريق تشيناروس راسما انحناءات تنحدر كلها إلى أسفل حتى كوركولس ، وفى الطريق يتحدث الرحالة مع فيليبى عن بهاء الريف وما ينبئ به الموسم من خير .

- نحتاج إليه .

- حقيقة .

ويعشق فيليبى الريف والزراعة وله أفكار قديمة صحيحة ومعرفه حكيمة بكل ما يدور حوله .

- ألا يشابه هذا المكان جليقية ؟

عند كوركولس ، يمر الركب بين جدران ديرة مغطاة بالنباتات المتسلقة ، والدير متهدم ومحاط بأشجار الدردار والجوز . ترعى دزینتان من النعاج السوداء فى الرواق المهجور وترتقى أربع أوست من الماعز السوداء الجدران المتهدمة التى ماتزال قائمة بأعجوبة وتلتهم سحابة من غريبان سوداء أيضا بالطبع ، تلتهم ناعبة جيقة حمار اتسععت عيناه وانتفخت جثته فى الشمس .

إخضر حقل الأنيسون

ويحلق عقاب رماهى

فوق المقابر

فوق زهرة الأفتنوس

تتبول عجوز

أزرق حقل الأنيسون

لا يدخل الرحالة كوركولس . تقع الضيعة فى المواجهة ، إلى اليسار ، بعيدة قليلاً عن الطريق . ينحرف للرحالة يمينا فى اتجاه ساثيدون . وكلما أخذ فى الهبوط نحو السهل .. اشتدت حرارة الشمس . ويبحث الرحالة عن أى مكان ظليل ليستريح بعض الوقت ويحتسى قليلاً ومن النبيذ يأكل شطيرة ويدخن سيجارة .

تلوح حقول الأنيسون مخضرة زاهية وحقول الزيتون يافعة معتنى بها بلونها الأخضر المائل للرمادى . والزراعة فى كوركولس منتعشة مزدهرة فتعيش القرية فى رخاء منذ أن اشتروا الأرض بأقل كثيراً مما كانت تساويه من كونت أرثينتالسى . وجميع أهل كوركولس الآن أصحاب أرض وكل يعيش مما يملك . ويتحدث الناس عن كونت أرثينتالسى بحب واحترام وهم سعداء بما اشتروه .

- عقد هذا السيد صفقة خاسرة عندما باع الأرض حينئذ .

- لا ياسيدى ، لا خاسرة ولا رابحة . ولم يرد السيد الكونت عقد أية صفقة ، كل ما هنالك أنه أراد أن يفيد القرية . والآن ما فقدناه هو وجوده بيننا فهو لا يحضر تقريباً إلى هنا . من قبل كان يحضر كل عام ويأمر بعجن الخبز ونحر الذبائح لكل الناس .

ياسف فيليبى على أن أرض كاساسانا أردأ من هذه الأرض .

- هذا شئ آخر ، أكثر بهجة وعطاء . أما هناك فإننا نفقد كليتنا فى الحقل ومع ذلك لا نخرج أبداً عن حدود الفاقة . ولكن إذا لم نعمل سيكون لأمر أسوأ بالطبع ، ألا يبدو لك ذلك ؟

- بلى .

يطرق فيليبى حزينا متفكراً .

- ياالحسن طالع هؤلاء !

- أجل ، ليس هذا بالشئ القليل !

يرفع فيليبى نظره .

- حسن .. أتدرى ما أقوله ؟ هذا خيرلهم وليدمه الله عليهم ، فأنا
لست كالأخرين .. لست حاسداً .

ثمة بساتين بديعة بين الطريق العام والقرية . ينحنى بعض الرجال
على الزرع ويأخذ البعض الآخر قسطاً من الراحة فى ظل شجرة ، إلى
جانبهم بغال نزع عنها نيرها .

- لو أن هذه الأرض ملكى لما استرحت أبداً ولا حتى للنوم .

وفيليبى رجل مفعم بالحماس ، من المؤكد أنه كان يصلح مهاجراً جيداً
أو معمرراً جيداً للأراضى الجديدة .

- هل أنت من أرض غنية أم من أرض فقيرة ؟

- من أرض غنية على الأرجح .

- من ناحية بيادوليد (Valladolid) أم من ناحية سلمنقة (Salamanca) ؟

- كلا .. من ناحية أعلى .. من ناحية جليقية .

يطرقع فيليبى بأصابعه .

- إن هذا لجيد !

- أتعرف جليقية ؟

- لا ، ولكنى سمعت عنها الكثير ، فلقد خدمت فى الحرب مع

جليقيين . أتعرف شخصاً يسمى بيتو فريرو ؟

- لا ، لا أعرف هذا الشخص .

- حسن ، لقد كنا صديقين حميمين وكنا دائماً معا ، وفى اليوم الذى أصبت فيه بعيار نارى أصيب هو أيضا ، كان ذلك فى جبال الكوبييرى فى سرقسطة .

- عجباً ! ونحن الجليقيين كيف نبدولك ؟

- أناس طيبون ومجدون فى أعمالكم ومخلصون ، ومع ذلك - كما ترى - لكم هنا فى قشتالة سمعة غير طيبة .

- ما عسانا أن نفعل !

- ليس هذا من قبيل الإطراء ولكن أعتقد أن هذه السمعة سببها الجهل .

- من يدري ؟

كلما اقترب الرحالة من سائيدون .. رأى مزارع الكروم تلوح فى الأفق والثيران تجر المحراث . تمر عربات الكارو تجرها البغال غادية رائحة ، ومن أن لآخر تمر سيارة نقل محملة حتى أعلاها ويوقف الحرس المدنى أحيانا بعضها ، فالحمولة المهربة دائما ما تكون أسفل الحمولة القانونية .

يعمر الناس الطريق وعلى بعد فرسخ ونصف فرسخ من سائيدون يلتقى الرحالة بالقافلين من حقولهم يسيرون على حافة الطريق فى جماعات من ثلاثة أو أربعة وفؤوسهم على اكتافهم وكلابهم وراءهم ، ويحمل بعضهم رأس قرع ذهبية تدلت من كتفه أو علقته فى خاصرته .

إنه وقت حلول المساء ، ويبدو المرور فى الطريق شأنه شأن المرور فى شوارع المدن وإن اختلف عنه هنا فى أن جميع الناس يسيرون فى نفس الاتجاه . على مشارف القرية ثمة طريق بديع محفوف بأشجار الدرادر

الذكور والإناث . فالدردار الذكر ينتهي أعلاه على نحو مدبب بينما للدردارة الأنثى أغصان مترامية الأطراف وهي مستديرة رؤوم .
فى سائون ، يسلك الرحالة طريقاً مختصراً يمر بالمقابر لن يلبث أن يخفى تحت مياه قناة بدأ العمل بها . إلى اليسار ، فى اتجاه الضيعة ، ثمة مصنع يقال له «المعصرة» يتصاعد الدخان من مدخنته العالية كأنها ماكينة قطار .

تبدو سائيدون - المحاطة بحقول القمح الخضراء النضرة - قرية هامة وصناعية . تملأ المنازل الأفق ويبرز برج الكنيسة متشامخاً فوقها .

فى ملعب الكرة الباسكية ، يمارس الشباب لعبتهم بدون مضرب . ثمة جمع كبير يشاهدهم ولكن أحداً - اللهم إلا اثنين أو ثلاثة من الشباب الصغير - لا يشجع زوجى اللاعبين بالصياح . ويقتصر المتفرجون على الشاهدة الصامتة فى اهتمام شديد وعلى تدخين التبغ . هناك لاعب أعسر كالعادة - يسمونه «الأعسر» بالطبع هو أفضل اللاعبين جميعاً . ويفكر الرحالة غير الخبير فى هذه اللعبة فى أنه لا بد أن يكون اللعب بالعكس مضللاً جداً .

يضرب الكرة

الشباب فى الملعب

يجلس قس وكاتب

فى شمس الغروب

ويتناقش بعض الفجر

صائحين بلا هواده

يجل الظلام عند وصول الرحالة ميدان القرية .

عند انترينيا ، ترحل

- بلون دم العقرب - الشمس
والآن لا يلعب الكرة
فتيان سـاـثـيـدون
يدخل الرحالة القرية
سـاـرـيا تقـرـيبا
وهو جائح وما يريد
سـيـجـده فى الحـانـة
زجاجة نبيذ
وفخذ خنزير لبانى

يحرس بعض تجار الأسواق - كل فى يده سوط طويل وعلى رأسه
طاقية بحافة لونها بنفسجى أو وردى باهت - قطيعاً من الخنازير
الصغيرة يربو عددها على العشرين ، وهى خنازير سوداء بلون الفحم
تصرخ كالأطفال . وعمر الخنازير حوالى شهرين ، نطمت حديثاً ووزن
كل ثلاث أو أربعة منها لا يزيد عن الربع (مقياس إسبانى للكيل مقداره
١١,٥ كجم) ويطلبون فيها بين سبعمئة بزيتة للأنثى وثمانمئة
وخمسين بزيتة للذكر . والأنثى تساوى أقل من الذكر وإن بدأ هذا
غريباً، ولكن الخنازير تشتري لذبحها لأن الخنزير هو زهرة العجائب :
ففى سبعة أشهر - وبقليل من الحظ - يصل وزنه أحد عشر أو اثنى
عشر ربعاً ويبلغ ثمنه آنذاك أربعة آلاف بزيتة .

تاجر معه سوط وعصا
وله شارب متوحش،
يبيع خنازير بخمس مئة بزيتة
لرجل ثرى

وينظر إليه تاجر آخر
ويده في قميصه
وفي نظره تلاحظ
نية غير طيبة أبدا
يتحدث رجلان من الحرس المدني
ربما عن الترقية
ويناقش مصور متجول
امر تكبير صورة
ويلوث اطفال في الثانية عشرة
أنفسهم في ركن
وتنظر إليهم فتاة لم تتزوج
من الشرف
وتتعلق فوق نافذة
يمامتان ونرخ

يجلس الرحالة على مصطبة بالميدان معطيا ظهره للنزل الذي سيببت
الليل فيه فيما بعد ليستريح قليلاً في الهواء وليتحدث إلى فيليبي الخياط .

- هنا فعلا يكون الثراء !

- يبدو هذا .

- وأى ثراء ! سائيدون ليست كأي قرية أخرى ، فهنا الغنى والفقير
يأوى جميعهم إلى فراشهم ويطونهم ملآنة .

بعد قليل ، تصل الحافلة . لا يمر القطار بأى من القرى التي عرفها

الرحالة فيما عدا وادى الحجارة . تفتح الحافلة أبوابها فيندفع الناس إلى خارجها بسرعة شديدة بعد رحلة يبدو أنها كانت مرهقة ، ويحيط سرب من الصبايا والأطفال بالركاب فى ضجة صاخبة . وركاب الحافلة شديدي النوع ، بين أسرة لا تنتهى من العجر وأطفال شاحبين واهنى البنية جاءوا ليقضوا أياما عند الأعمام فى الريف وفلاحات ثريات مهدمات وتاجر ماشية بقميصه الأسود وبمنديله الحريري حول رقبته .

يفكر الرحالة فى أنه من الأنضل أن يتوجه الآن إلى النزل ليتناول عشاءه ولينتهى من أمر البيت . والنزل بيت كبير وفسح وتقرأ كلمة «فندق» على قوس مدخله . ثمة لافتة صغيرة من الخرف ، على جانب من جوانبه ، كتب عليها :

شارع الدكتور رامون إى كاخال . وفوق الشرفات ، بعرض الواجهة ، كتب : نزل فرانتيسكو بيرث . توفى فرانتيسكو بيرث منذ فترة وآل أمر النزل لابنه : انطونيو بيرث . يأسف الرحالة لأن صاحب النزل الحالى لم يضع اسمه على الواجهة ، فقبل يوم من الوصول إلى باسترانا (Pastrana) كان سيشعر بالسعادة لو نام فى نزل يسمى نزل انطونيو بيرث .

فى الدهليز ، يلتقى الرحالة بمارتين المنسوب المتنقل الذى عرفه فى تريو وعاد فراه فى بوديا .

- ظننت أنك لن تأتى .

- ها نذا بين يديك .

- أنا هنا منذ البارحة .

- أجل ... لكنك جئت على دراجة . هل ثمة سريرلى ؟

- نعم تعال لترى ربة النزل ، لقد أخبرتها بأنك أت .

وربة النزل امرأة شابة بدينة صحيحة البدن كأنها الصحة نفسها
ومتوردة كالتفاحة .

- قيل لى إنك قادم .

ابتسم الرحالة للمندوب المتنقل . أردفت ربة الدار :

- ماقد لا تجده هنا ربما كانت بعض الكماليات ، فيما عدا ذلك تجد
نظافة ومعاملة طيبة .

- عظيم !

- ماذا تريد للعشاء ؟ عندى القليل ولكنك واجد كل شىء : لدينا بيض
ولحم ضأن طيب وسمك التروتة وبعض لحم الخنزير وبطاطس ...

وللحلو يمكنك أن تتناول أناناس محفوظا وكريزا بالعرق ، وإذا أردت
فاكهة لدينا فاكهة أيضا ، أما إذا فضلت الجبن فلا بد أنى واجدة شيئا منه
هنا . ليس عندى من التبيذ الكثير ، قد يتبقى شىء من تبيذ لاريوخا فى
زجاجة .

تتكلم المرأة معذرة والرحالة مفزع ذاهل : يبد وأنها اعتقدت أن دوقا
دخل بيتها . مما لا شك فيه أن المندوب المتجول أسرف فى تفخيمه .
وأسوأ ما فى أن يؤخذ الإنسان على أنه ثرى يأتى عند دفع الحساب .
يذهب الرحالة وصديقه مارتين إلى مقهى لتناول الفيرموت (فاتح
للشهية) ريثما يعد العشاء . يكتظ المقهى بالناس والهواء بالداخل كثيف
ويمكن قطعه بسكين . على المواثد ، يلعب الدومينو بعضهم والبعض
الأخر يلعب الورق ، ويلعب شخصان متعزلان مباراة فى الشطرنج فى
أحد الأركان . مظهرهما وقور جليل وجاف . إلى جانبهما يجلس ثلاثة أو
أربعة مشاهدين لهم وجوه تكعيبية . عندما يخرج أحد لاعبي الشطرنج

سيجارة يشعلها له المتفرج الأقرب إليه . وعندما ينبه النادل بإيماء غامضة
ينبهه المتفرج الذى يلتفت إلى ذلك أولاً بقوة ويحتمق . وعندما يقع بيدق
أوفيل أو حصان تحت المائدة يسرع أقرب المتفرجين إليه بالتقاطه . أحبب
بلعب الشطرنج على هذا النحو .

لا يشعر الرحالة بالراحة فى المقهى .

- نخرج من هنا بمجرد الانتهاء من تناول الفيرموت ، مارأيك ؟

- لك ماتشاء .

فى الشارع تغنى حفنة من الصبايا جماعة على ضوء واجهة بازار : أنا
أرمله الكونت لاوريل .. أريد الزواج ولا أعرف ممن ؟

يتحدث فيليبى الخياط مع بعض البغالين عند مدخل الفندق . كان ترك
الحمار فى الحظيرة بعد أن نفحه حزمة من العلف . ماإن يدخل الرحالة
حتى يقترب منه فيليبى الخياط .

- حسن ... أستطيع العوده الآن ...

- لا يارجل ، الآن لا . استرح قليلا ثم ارحل فجرا . ادعوك للعشاء .

- لا تكلف نفسك ، لقد أحضرت شيئا من الطعام .

- لا بأس بذلك ... احتفظ به للطريق .. والآن تناول عشاءك مع هذا

الصديق ومعى .

- حسن .. إذا كانت هذه رغبتك .

تناول فيليبى الخياط ومارتين المندوب المتنقل والرحالة عشاءهم فى
حجرة طعام صغيرة جيدة الإضاءة ومؤثثة تأثيثا بديعا يبدو أنها لا تفتح
إلا فى مناسبات محددة . أثناء العشاء ، دخل تاجر أحمر الشعر ملتحي

العارضين وقصير النظر فى حوالى الخمسين من عمره ، فواجه الرحالة
وفاجأه فى شدة :

- اسمع يا سيدى ، ألا تتبع غطاءات زجاجات النبيذ .. ؟

- نعم ، لا أبيعها .

- ألم تبعها قط ؟

- نعم يا سيدى ، لم أبع قط غطاءات زجاجات النبيذ ..

أوما الرجل فى استسلام ثم غادر المكان .

شرحت ربه الدار للرحالة فيما بعد أنه منذ عامين أو ثلاثة باع أحدهم
لهذا الرجل الملتحى العارضين القصير النظر والذى كان يملك مصنعا
صغيراً لتعبئة النبيذ .. فى بريغودى كونيكا صفقة من خمسة آلاف
غطاء تاكسدت جميعها .

- وكان للرجل الذى باعه الغطاءات نفس هيئتك ، فكان طويلاً
كستنائى الشعر .

بعد هذا العشاء الفاخر ، يشعل الرحالة سيجاراً به ثقب فيلصقه بورقة
، لكن السيجار مازال لا يسحب النفس ، لذا يتركه كاملاً فى منقضة
سجائر معدنية منقوش عليها منظر من «دون كيوخوته» ملئت بأعقاب
السجائر . يظل ثلاثتهم جلوساً إلى المائدة يتجاذبون أطراف الحديث .
ويساعد الرحالة صديقه المندوب المتجول فى تحديد خط سيره القادم على
خريطة دليل طرق «ميشلان» والمندوب سعيد سعادة غامرة بذلك .

- بحمارى الفولاذى أصل حتى سيبريا . ولقد فكرت فى كل شئ . إما
أن أصبح ثرياً أو أهلك دون ذلك .

يودعهما فيلبى الخياط قبل أن يذهب لينام شيئاً ، بينما يخرج

الصديقان للتجول فى القرية .

- الا نحتسى قهوة ؟

- حسن ، لك ما تشاء .

احتسبنا قهوتهما واقفين أمام طاولة المقهى .

- والآن إن شئت نذهب لنحصى صديقاً وهو فتى طيب جداً ولم أره منذ وقت طويل .

- عظيم .. لنذهب !

صديق مارتين له محل تأجير دراجات . قام مارتين بمهمة تقديم كل منهما للآخر :

- هذا السيد من مدريد ، وهذا بكو .. نسميه الصخرة الحرة . هذا الولد لو درب جيداً لأصبح مثل دليو رود ريغث (بطل سباقات الدراجات الشهير فى إسبانيا فى ذلك الوقت) .

وكان بكو - الصخرة الحرة - محاطاً بأصدقائه داخل الحانوت . وهو بطل له شعبية ، وهو بلا شك واحد من أفضل متسابقى الدراجات فى المقاطعة . كانت الندوة تدور حول دورة إسبانيا للدراجات .

- لم يعد كاريتيرو على نفس مستواه القديم . هذا واضح . ودليو .. حسن ! .. يفرض نفسه معتمداً على شجاعته .. يعاونه فريق جيد ، هذا كل ما فى الأمر . أما من يجرى وحده فهو شقى أحقق .. ومن الأفضل الا يخرج من بيته .

يومئ الرحالة برأسه موافقاً على كل شئ .

سائيدون قرية يقضى أهلها الليل فى السهر ، فى هذا الوقت من السنة على الأقل . تدق الساعة منتصف الليل عندما يعود الصديقان إلى

المنزل . على مصاطب الميدان وأمام أبواب المنازل ترى جماعات من الناس تجلس فى الهواء الطلق فى صمت .

فى دهليز المنزل يرقد عشرة أو اثنا عشر رجلاً بين بغال وتاجر وقد التفوا فى بطاطينهم . فى أحد الأركان يغط صاحب مصنع تعبئة النبيذ فى نومه وأمامه بقليل ، يرقد فيليبى الخياط وقد تكور فى نومه .

ما تزال ثمة حركة فى المطبخ . تذرعه ربة الدار ومعها خادمتان جيئةً وذهاباً . ينشفن الأواني ويعدن الأشياء مكانها الأول . ينعس رجل ويرقد قط إلى جانب موقد واطئ خمدت ناره . تلمع المفارغ النحاسية على الحائط نظيفة نظافة صحفة القربان المقدس، ويصطف طاقم الألومنيوم مرتباً حسب الحجم على الرف .

يحيى الرحالة ربة الدار ويصعد إلى غرفته . أماما رتين فيتسلل ويذهب من حيث أتى ، فله شئ من الحظ مع النساء ، هذا ما فهمه الرحالة وبدا له فى محل تأجير الدراجات . ولقد فاتحه الرحالة فى هذا فى شئ من الهزل فنفس مارتين ريشه كأنه ذكر حمام ولم يكن لجلده أن يسعه .

كانت غرفة الرحالة خارجية ، بشرفة تطل على الميدان - أو على شارع الدكتور رامون إى كاخال على الأصح - وبها سريران وحوض اغتسال على الأرض وإلى جانب السرير وجد الرحالة حاجاته مرتبة ترتيباً جيداً . على «الكومودينو» كان ثمة دورق ماء رسمت عليه زهور زرقاء وغصن بنى اللون وأوراق شجر خضراء . وأطلت من تحت الفراش مبولة ضخمة من الخزف الأثرى . نظر الرحالة تحت الفراش الآخر فوجد مبولة صغيرة متآكلة الحواف هزيلة حقيرة بلا بريق .

دخن الرحالة سيجارة فى فراشه ثم أطفأ الضوء . كان متعباً ومالبت أن

غلبه النعاس . كان الفراش نظيفاً والمرتبة رائعة فنام فى دعة وبلا اضطراب
أو كوابيس تسع ساعات متواصلة .

وظل الفراش الآخر على حالته . يبدو أن مارتين لم يخطئ الهدف .

عندما هبط الرحالة لتناول الفطور وجد مارتين وقد حلق نقته جيداً
ومشط شعره جيداً وارتدى قميصاً نظيفاً وحذاء براقاً يجلس فى حجرة
الطعام ويقرأ الصحيفة .

- أقرأ دائما هذه الجريدة ، فهى تنشر أخباراً كثيرة من الإقليم . كانت
جريدة «الكثير» المدرية ، طبعة وادى الحجارة .

ذهب مارتين فى نشاط إلى المطبخ ليقول لهم أن يعدوا الفطور . كانت
منفضة السجائر المعدنية على المائدة وبدت الآن وقد نظفت لتوها وقبع فى
قاعها وحيداً متشامخاً كالملك عقب السجارة الذى كان الرحالة قد تركه
ليلة أمس ، بدا عقياً رائعاً حقيقة .

على مائدة الفطور - بيض مقلى وشحم الخنزير وقهوة بالحليب
وزبد وفاكهة - يتحدث الرحالة إلى مارتين .

- كيف كان الحال ليلاً ؟

يبتسم مارتين ابتسامة تلميذ تعلم الصعلكة ولا يرد . يبلغ الرحالة
المطبخ ليرى ربة البيت قبل خروجه .

- اسمعى يا سيدتى ، سأخرج لأتنزه فى الطريق وسأرحل بعد ذلك
عن سائيدون ، هلا أعددت الحساب ؟

- بلى يا سيدى . لقد سجلته ههنا : خمس وخمسون بزيتة .

- كلا ، سجلى كل شئ : عشاء الصديقين ليلة أمس وإفطار السيد

مارتين اليوم ، فكما قلت لك سأدفع أنا كل الحساب .

- نعم يا سيدى ... كل شىء مسجل : ثلاثون بزيئة للعشاء وخمس بزيئات للسريرين واثنتى عشرة بزيئة للإفطار وأصفت بزييتين للخدمة حتى يصبح الرقم صحيحا .

راجع الرحالة القائمة دون اهتمام ثم دفع . وأراد ان يترك خمس بزيئات إكرامية ولكنهم لم يأخذوها منه .

- هل أستطيع أن أترك جرابى هنا حتى أعود ؟

- نعم يا سيدى .. سأحفظه فى المطبخ .

خرج الرحالة للتنزه فى القرية . سائيدون بلدة رائعة شوارعها عريضة رحبة وبها منازل من ثلاثة طوابق ومحال كثيرة تكتظ بالبضائع . ويشرح له مارتين أى هذه المحال عملاء له وأيها لا . فى محل لبيع ملابس الرعاية علق دلق محنط حشى بالتبن وهو معروض كعينة .

والبائع ثعلب عجوز حاذق شديد الخبث . وهو بشوش مبتسم ولكنه لا يكشف أسراراه :

- ليست الأمور الآن على ما كانت عليه فى الماضى . فالآن لا بد من الشقاء والعرق كى نكسب لقمة عيش لا تغنى ولا تسمن .

اسمه بيو ولقبه التحقىرى «العم قط» وهو قصير القامة ذو لحية خشنة وبنائظه حول . يلبس مئزرأ من جلد النعال وطاقيه متسخة . وحنوته ضيق أيضا وكريه الرائحة متهالك . قلب رأساً على عقب . يرقد المكشط معلقاً على الحائط وعلى إحدى المناضد يستقر سكين جرد الجلود النحاسى فى انتظار زهرة فرو الماعز ليأكلها ويطل مكشط بأذنيه من حواف خص ثور وتقبع الشفرة والمدبغ وأوانى خروب الدباغة وحامض

التنك في أحد الأركان .

- لديك عمل كثير ؟

- لا شيء منه . لا تلق بالا إلى ذلك ، فنحن نعيش بالكاد تقريباً .

يشرح مارتين للرحالة فيما بعد أن العم قط مشهور في البلدة بأنه من الأثرياء بل إنه مليونير .

يجلس أبله في الشمس يأكل مشمشاً .

- أنتظر يا سيدي إلى هنا . هذا دون غيره هو الذي يفهم معنى الحياة .

- هون عليك يا رجل ، ما هذا إلا شيء معتاد .

عند بلوغ الباحة ، يرى الرحالة الحافلة تستعد للقيام فتداخله فكرة
أثمة .. يأخذ حقيبته ويودع ربة الدار .

- أترحل يا سيدي مسروراً .

- أجل يا سيدتي ، مسروراً جداً .

- هل قمنا على خدمتك على ما يرام ؟

- أجل على الوجه الأكمل .

- حسن ... أنت تعلم أين مكاننا .

- لا تهتمى لذلك ... لن أنسى .

- أذهب في السيارة العامة .

يحمز وجه الرحالة خجلاً .

- أجل ولكن لمسافة نصيرة ليس أكثر .

- حتى محطة تنديا .

- نعم حتى هناك .

رحلة في حافلة

مسافرا فى الحافلة

يصبح الطيران دجاجياً.

(خوسيه بلا) (١)

تسير القافلة مكتظة بالركاب حتى أعلاها . يفسحون للرحالة مكاناً فى اخر صف بين اثنين من الفجر . فى إقليم القرية التقى الرحالة بفجر فى كل مكان ، فحجر يعيشون فى سلام وتماام اتفاق مع غيرهم ، فحجر مجتهدون وعمال مهرة - يجيدون تركيب نعال الأحذية ويغنون أغانى الفجر فى ورشة الحدادة ويصنعون اشد المراجل بريقاً وسلالاً رقيقة متينة - وهم فحجر حضريون مقيدون فى السجل المدنى ويؤدون الخدمة العسكرية ويسافرون فى الحافلات العامة . فحجر ... الشياء الوحيد الذى لا يفعلونه هو الزواج من غير أبناء أو بنات جنسهم .

يطأ الرحالة عندما يحاول أن يعدل من وضعه فحجرية شابهه باءية الحسن دون قصد .

(١) Josep Pla (١٨٩٧ - ١٩٨١) أحد عمالقه الأء القطلونى ومؤرخ قطلونيا .

تصرخ المرأة .

- ليلكمك إنجليزى سكير لكمة شريرة ، ياعديم الذوق .

عندما تتحرك الحافلة يلتصق الناس إلتصاقاً مؤلماً أحياناً .

- سوف تسحق الطفل أيها السيد .

يجيبها الرجل دون أن ينظر إليها محاولاً الحفاظ على توازنه ، وحتى إذا

أراد أن ينظر إليها لن يستطيع أن يدير رأسه .

- أرفعيه على شبكة الحقائب أيتها السيدة واصمتي .

- علينا أن تنتظر شهر أغسطس لأننى حتى الآن أحمله فى بطنى .

ما أن تخرج الحافلة من القرية حتى تشرع بعض الخادومات فى إحداث

جلبة سوف تستمر طوال الطريق . قبل الوصول إلى نهر التاجه تستأذن

سيدة بدينة وتتقى على أحد رجال الحرس المدنى وعلى سيدة وعلى طفل

تحمله على ذراعيها . كان الطفل نائماً بيد أنه يصحو بالطبع ويأخذ فى

الصراخ . ويصرخ الطفل كما لو أنهم يقتلونه ، والأمر لا يستأهل كل هذا

كما يقول محققاً شاب يلبس ربطة عنق وقبعة خضراء زاهية . تغنى

الخادومات بلا توقف ولكنهن يغيرن الأغنية دائماً . كن قد بدان بأغنية

زهرة الخشخاش ثم تبعنها بأغانى أين هم شبابنا ، ووردة مدريد و زهرة

تشامبرى ومارش اديس ابابا بتوزيع خاص جداً و القرعاء بلا شعر .

يجلس مساعد فى الحرس المدنى ورقيب فى الخيالة وسيد جاد يلبس

السواد له ملامح قس ، بجانب السائق .

يتحدث الناس عن الخزانات التى مازالت تشيد على نهري التاجه

وغواديبلا (Guadiela) وهم يؤكدون أنهما مشروعان عظيما الأهمية.

خروجاً من سائيدون ترى جبال سان كريستوبال بلونها الأخضر الداكن
وغير شديدة الارتفاع . يحرس راعي غنم الماعز فى أرض سوف تبتلعها
مياه الخزان . أقيمت فى سفح الجبل مصانع للأسمنت لتزود مشروع
الخزان باحتياجاته منه .

لو أن الرحالة مشى هذا الطريق على قدميه لاستطاع أن يعبر شعب
إنتربنيا الذى سيختفى أيضاً تحت الماء .

يشرح الشاب ذو الشريط والقبعة للرحالة - باذلاً مجهوداً شاقاً حتى
يستطيع أن ينظر إليه - أن خزاني إنتربنيا وغواد بيلا - باللعب - سوف
يتصلان بنفق تحتها حتى يتساوى منسوب المياه فى كليهما . يوافق
الرحالة غير مقتنع ، ففى الحقيقة أن يتساوى منسوب المياه فيهما هو
شيء يتلقاه معرضاً .

تعبير الحافلة نهر التاجه وترى منازل حديثة البناء ، المخازن ومساكن
المهندسين لها هيئة إحصائية حزينة ، هيئة مبتذلة لمنازل صنعت بالجملة .
ليس الطريق الآن سوى منحنى متصل ، والسيدة المصابة بالدوار لها الآن
اثنتان من المقلدات تخرجان نصف جسديهما من النافذة . حتى تصل
السيداتان إلى هناك اضطررتا للمرور على أجسام الركاب .

يتسلى الرحالة معزياً نفسه ، بعد كل هذا التقيؤ ومازال نهر التاجه
على مرمى البصر وفكره عالقاً بالخراما والإينارس والتاخونيا - الأنهار
التي مر بها - ، بنظم أبيات روحية ما تزال عالقة بذاكرته :

عند الخراما

يمضى ثور أسود

سيدة

وقارس

يسير الفجر

فى شعب .

فارس

وسيدة.

فلتطر القبة

ولتغن القبرة .

سيدة

وقارس .

فى الصباح الباكر

النهر ذهبى .

نهر إينارس .

مليء بالماء .

هموم سوداء

وتنورة بيضاء.

يمر نهر التاخونيا

على ضفاف البساتين .

قطعة لصقة

وأرض بور .

تخط موعداً

على السنابل

ونهر التاجية

مثل كلب صيد

فارس

وسيدة .

لا طويل ولا قصير

رصاص وحبل

على الجدول

تمشى أمازون

عند المرور بأونيون (Aunon) ، تغنى الخادماة أغنية وردة مدريد تصرخ إحداهن وهى بدينة خفيفة الظل سليطة اللسان : يحيا خطيبى ! ولكن الأخباريات اللائى يبدون أكثر رصانة لم يصرخن إلا بعبارة تحيا قريتى أو لأحيا أنا وهو دعاء لا ينسى أبداً .

تبدو الطبيعة خضراء ويكثر الشجر وتستمر على هذا النحو حتى بعد ألونديغا (Alhondiga) ، ناحية بيت عمال الطريق عند المفترق المؤدى إلى فونتيللا إنثينا (Fuentela Encina) حيث تبدأ الهضبة من جديد .

والو نديغا قرية من الأجر علقت فوق نهر أربلس (Arles) الذى يهبط من مرتفع برنينتيتش (Berninches) فى سلسلة الجبال الواقعة وراء الأوليبار .

يسأل الرحالة المحصل عن كيفية الذهاب إلى باسترانا .

- حسنا ، يمكنك النزول فى تنديا وانتظار الحافلة الأخرى هناك ، الحافلة الآتية من مدريد .

- وفى أية ساعة تمر ؟

- فى الساعة أو الساعة والنصف مساء .

ولما كانت الساعة ماتزال الحادية عشرة صباحاً والمسافة من تنديا إلى المحطة لن تزيد عن فرسخ كثيراً حسب الخريطة ، يقور الرحالة النزول فى تنديا حتى يرى القرية ويتناول غداءه ثم يذهب بعد ذلك إلى المفترق فى نزّهه على قدميه .

قبل الوصول إلى تنديا بكيلو مترين أو ثلاثة ، وعلى يسار الطريق ثمه أطلال شائعة المظهر ، ولا يدري الرحالة ما إذا كانت تاريخية ولكن ما يعرفه حقيقة هو أنها بدت له قليلة الأهمية . على ضفاف الجدول الذى يحمل نفس اسم القرية يمتد طريق بديع محفوف بالأشجار الوارفة يؤدى إلى تنديا .

ينعس الغجر فى الحافلة وعندما يريد الرحالة النزول يضطر إلى إيقافهم حتى يتمكن من المرور .

- وداعاً ياسادة ورحلة طيبة !

- وداعاً يارجل ، حظاً سعيداً .

عندما تطأ قدماه الأرض يلاحظ أنهما خدرتان وأنه لا يستطيع السير تقريباً . تؤله كليته وتفنت كل ملابسه وخرجت من مكانها . يدخل الرحالة الحانة التي توقفت أمامها الحافلة ليحتسى شيئاً وليصلح ما بوسعه من شأن هندامه .

وتنديا قرية أروقة مفلطحة ومستطيلة كأنها السجق تمتد بطول الطريق . فى هذه القرية يملك الكاتب الإسباني دون بيو باروخا^(١) حقل زيتون يوفّر له الزيت طوال العام .

يتحدث الرحالة إلى فتيات الحانة .

- أتعرفن بيوباروخا ؟

- لا سيدى .

- أولاً تعرفن من هو ؟

- نعم ياسيدى ، ولا نعرف من هو .

تتدخل الأم التي خرجت من المطبخ لتوها .

- بلى يابنات ، بل هو السيد أوفراسيا الذى اشترى أرض طريق موراتييا المواجهة لأرض العم بييرد يكاروس (العم مضيق عربات الكارو) .

- أه ، نعم ، ولكن هذا السيد لا يأتى إلى هنا أبداً . لابد أنه تقدم فى السن . يقول السكرتير إنه رجل مهم جداً ، من أهم الناس !

يخرج الرحالة بعد أن قضى بعض الوقت فى الحديث ليبحث عن مكان يترك فيه أمتعته وليشاهد القرية . يمر أمام فندق به لافتة خشبية علقت

(١) اعظم الروائيين الإسبان فى القرن العشرين ينتمى إلى جيل ١٨٩٨ الإسبانى .

فى إحدى الشرفات . تقول اللافتة : فندق خوان الجديد القديم . يدخل الرحالة ، بيد أنه لا تستقبله سوى كلبة هزيلة حقيرة تنبح لقدمه فى غير احترام وتكثر عن أنيابها . ينتظر الرحالة ريثما يأتى أحد أو تكف الكلبة عن النباح ، لكن لا كفت هى ولا خرجت ربة الدار للقائه . فيتقدم قليلاً نحو الباب ويصفق بيديه مرتين . فيجن جنون الكلبة وتلقى بنفسها عليه تريد عضه فى ساقيه . فيخطو خطوة إلى الخلف ويعاجلها بركلة طارت بها إلى الجدار وكادت تقضى عليها . باللحيوان الشقى ! وما أعنف الركلة ! أخذت الكلبة فى العواء وخرجت تعرج وقد تقوس ظهرها . تخرج امرأة على العواء .

- ماذا فعلت أيها السيد ببرليتا ؟

- اصمتى ياسيدة ودعيني وشأنى ، هل أستطيع تناول الغداء ؟

- ليس لدينا ما تأكله . أغرب عن وجهى وإلا ناديت زوجى خوان وسترى كيف يطردك ضرباً بالعصا !

- لا تصرخى ياسيدة فلا يستحق الأمر كل هذا ، ولا تستدعى زوجك خوان فإنى ذاهب .

ينبح كلب .

السيد خوان الجديد

صاحب الفندق القديم

حيث تجد «لا ياسيدى»

يردون بها على من يطلب منهم خبزاً .

عاد الرحالة إلى الطريق ثانية وقاده طفل إلى نزل أنيق فى الطرف الآخر من القرية أرضيته من البلاط الصغير وعلى حوائطه صور أشخاص

فى أطر مذهبه وصاحبه النزل سيدة لينه الجانب . اتفقاً على أن تعد للرحالة يمامه للغذاء . خرج الرحالة إلى الحظيرة وأخرج دلو ماء من الجب وأخذ يغتسل . كانت فى الحظيرة طيور كثيرة متنوعة . حمام وأكثر من عشرين دجاجة وعدد مماثل من البط وستة أو سبعة ديكة رومية وأوزتان كبيرتان . وعندما كان الرحالة منحنياً إلى الإمام يبلل قفاه بالماء نقرته أوزة فى مؤخرته نقرة كادت تقتلع قطعة غضة من لحمه لولا أن الأوزة أخطأت فى قياس المسافة وارتطمت بالعظم . ألم بالرحالة فزغ عظيم - لأن أهدأ لا يتوقع أن يتلقى عضة كهذه بينما يغتسل - فأطلق صرخة بعدت عن الاتزان بعض الشيء ، فهاجت الحظيرة وضرب الحمام الهواء بجناحيه وأخذ الدجاج والبط فى الفرار مذعوراً من مكان لآخر وزبطت الأوزتان فى جنون ، فأسرعت ربة البيت لترى ماذا حدث بينما وقف الرحالة وفى إحدى يديه عصا ويده الأخرى على مكان الأكم لا يعرف أيفر أم يكر كرة ضد العدو .

- ماذا حدث ؟

- أبدأ .. كما ترين ياسيدتى .. لوكنت غفلت ما استطعت الجلوس ثانية فى حياتى .

- إنها الأوزة اليس كذلك .

- بلى ، الأوزة .

- بالطبع ، لأنها لا تعرفك . هل سال دمك ؟

- تحسس الرحالة مؤخرته .

- لا ، لا يبدو هذا .

كانت الديكة الرومية هى وحدها التى ظلت هادئة . خرج الرحالة من هناك وطفق يفكر فى أن حيوانات هذه البلدة ربما كانت مفرطة فى

ضراوتها . ربما كانت الأغنية التي مطلعها : لا تشتتر بغلام من تنديا إنما
اخترعت لتحذر البغالين من الموت رفسا ..

من يدري ؟ على الأقل يحذر مؤلفها المجهول الذي احتاط للأمر من أن
البغل قد يكون زائفاً .

ذهب الرحالة للنزهة حتى تحين الواحدة بعد الظهر ، وعثر في طريق
المقابر على جدران رائعة غطتها النباتات المتسلقة في بعض الجوانب ،
وهي أطلال دير قديم . إلى جانبها ، في ساحة صغيرة ، كان ثمة صليب
حجري غير مرتفع على شيء من الجلال . من هناك تمكن رؤية كل
غوطة تنديا : حقول الزيتون في سفوح الجبال والبساتين في السهل
بمحاذاة طريق السيارات وجدول الماء .

بعد الغداء ، غادر الرحالة البلدة سيراً على الأقدام في أناة تجاه المحطة .
ولم يلتق بأى شخص خلال الفرسخ الذى ساره ولم ير شيئاً خارجاً عن
المألوف يسترعى انتباهه . والطبيعة في ذلك المكان بنية اللون رتيبة مملة
ويبدو الناس كأنما اتفقوا على عدم الخروج إلى الطريق .

عند محطة تنديا ثمة مطعم صغير أرضية ترابية وله سقيفة غطيت
جميعها بلبلاب مزدهر ومنعش وفواح . لديهم زجاجات جعة باردة
وسجق طيب وخبز طيب أيضاً لتناول وجبة خفيفة . وهم يبردون الجعة
بوضعها في البئر داخل دلو لعدة ساعات . وبدت تلك الحانة الصغيرة
وسط الحقول كأنها جنة الله على أرضه . أخرجوا للرحالة كرسيا صغيراً
من القماش فجلس في الهواء الطلق يأكل خبزاً وسجقاً ويشرب الجعة ثم
نعس قليلاً وانتظر الحافلة التي ستقله إلى باسترانا .

وصاحبة الحانة رقيقة الحاشية تجيد عملها ، فشعر الرحالة المستلقى
على الـ (Chaise - Longue) بسعادة غامرة في يوم لم يتعب فيه ، وأحس
بأن غمامة من الخواطر الذهبية تجتاح خياله وانتهى به الأمر إلى أن غلبه

التعاس ومن يدري ؟ لعل ابتسامة ارتسمت على شفتيه .

أيقظته الحافلة من حلمه اللذيذ ، فقد وصلت مبكرة أكثر من نصف ساعة عن موعدها وهبط منها الركاب الذين سينتظرون الحافلة الأخرى الذاهبة إلى سائيدون ، وصارت نصف المقاعد شاغرة .

سلكت الحافلة طريق فونتلببيخو (Fuentelvieje) لأن الطريق المعتاد - وهو طريق آخر إلى اليمين - كان معطلا بل مقطوعا فى بعض أجزائه بسبب الفيضانات . وفونتلببيخو ضيعة صغيرة وتقليدية الهيئة وجميلة . يهبط هناك زوجان شابان حديثا الزواج قضيا شهر العسل فى وادى الحجارة .

على جانبى الطريق ترى كهوفا أمام كل منها مصطبة صنعت من نفس طينها وسقيفة جفت أغصانها . والأرض موجة وخضراء . عند بلوغ الطريق الفرعى المؤدى إلى موراتيا دى لوس ميليروس (Moratilla de los Meleros) تتوقف الحافلة لينزل ثلاثة أو أربعة أشخاص سيضطرون لقطع مسافة كيلو متر مشياً على الأقدام وهى المسافة التى تفصلهم عن القرية . يقول لهم السائق :

- من حسن حظكم أن أتينا من هنا .

- حسن يا رجل ، لن يجر علينا الفيضان مصائب فقط .

يمتد الطريق من أويبا (Hueva) بين بساتين صغيرة حرثت على نحو طريف . وبرج كنسية أويبا مائل كبرج بيزا . تسير الحافلة شبه خاوية ويبدأ الرجال فى إعداد أغراضهم وحقائبهم وأكياسهم وقفهم .

- هل أنت من باسترانا ؟

- لا يا سيدي .

- ربما كنت مندوباً متجولاً ؟

- ولا هذا .

- أه ! ، أذهبت أنت إذاً لزيارة سجين ؟

باسـتـرانا

يصل الرحالة إلى باسترانا مع آخر ضوء فى النهار . تنزله الحافلة عند مدخل البلدة ، فى أعلى منخفض طويل وشديد الانحدار . لا تريد الحافلة هبوطه ربما لأن السائق لا يريد أن يجد نفسه مضطراً إلى صعودها صباح اليوم التالى محملاً بالرجال والنساء والعسكريين والمدنيين والصناديق والسلال والطرود والخرجة والقبعات.

ليست الساعة مناسبة لدخول القرية ، فيقرر الرحالة أن يبحث عن مأوى ليتناول عشاءه ويأوى إلى فراشه ويؤجل كل شئ لليوم التالى . فضوء النهار هو أفضل وأنسب لطبيعة الضرب فى الأرض بين القرى والحديث مع الناس ومشاهدة الأشياء وتسجيل بعض الانطباعات فى دفتر من حين إلى حين .

والواضح الجلى أيضا أن الناس ينظرون إلى الغريب نظرة أفضل فى ضوء النهار ويرتابون فى أمره ارتياباً أقل ويثقون فيه على نحو أسرع ، كما يبدون أكثر استعداداً لإعطائه أية معلومات يبحث عنها أو كوب ماء يطلبه أو ورق تبغ يحتاجه . أما فى الليل فالناس متعبون فضلاً عن أن الظلام يجعل الناس أكثر ارتياباً وحذراً وأقل وثوقاً . نهاراً ، وخاصة إذا ما اقترب الصيف وطال النهار وصار الضوء أكثر نقاء والحرارة أكثر اعتدالا ،

يبدو الناس أكثر طيبة وترحاباً وتتخذ القرى مظهراً أكثر بهجة وتفاؤلاً وبشراً .

ويبدو أن الليل خلق للسرقه فى تكتم وبخطوة نثب ، سرقة صرة الذهب التى تخبئها الأسرة فى قاع الصندوق بين الملاءات الكتانية الرقيقة والشالات ، أما الصباح فهو على العكس من ذلك ، جعل لطلب حسنة ودياً وبلا حياء وبابتسامة على الشفاه واليدان فى جيبى السراويل .

- أتعطينى شيئاً يا سيدى ؟

- أعطاك الله يا أخى .

- لا يهم ، شخص آخر سيعطينى .

لا يستحب أن تدخل القرية أو يدخل البيت لأول مرة ليلاً . وللرحالة تجربته فى هذا الشأن وهو يعى أنه وجد حظاً أوفر دائماً فى القرى التى دخلها فى ضوء النهار .

يهبط حتى ميدان البلدة مفكراً فى هذا الأمر ودون أن ينظر حوله كثيراً . يبحث عن فندق ومن المؤكد أنهم سيرشدونه فى الميدان . وما يريده ليس بالشئ الكثير فهو لا يحتاج إلى كماليات . وباسترانا بلدة كبيرة ومن المحتمل أن يكون بها خمسة أو ستة أماكن للإقامة بين خان ونزل وفندق .

فى الميدان ثمة جماعات من الرجال يتحدثون وفتيات يتنزهن وقا أحطن بأفراد من الحرس المدنى الشباب يغازلونهن يخطبون ودهن فباسترانا بلدة تستضيف ثكنة كبيرة من ثكنات الحرس المدنى .

يلعب صبية الكرة فى أحد أركان الميدان ، وفى الركن المقابل تلعب الصبايا لعبة «نط الحبل» كما يرى بعض سادة القرية بحللمهم وربط

عنقهم وفتيات بأحذيتهن العالية . تضاء المصابيح الكهربائية تباعاً ومن إحدى الشرفات تخرج حشرجة جمهورية لمذايع .

يقترّب الرحالة من جماعة .

– مساء الخير .

– مساء الخير .

من سئّل هو عمدة البلدة . بعد مرور شيء من الوقت فى الحديث ، يدرك الرحالة والعمدة أنّهما صارا صديقين ولو لم يقدمهما أحد ، ولكن لا يهم . لا يعرف أى منهما اسم الآخر ولكنهما يريان أن هذه المسألة سهلة الحل . يذكر الرحالة اسمه وكذلك العمدة . يسمى دون مونيكو فرناندث طوليدانو محام ومدير أملاك الكونت . الكونت بالطبع هو كونت رومانونس .

دون مونيكو رجل نكى ودود يميل إلى البدانة وقصر القامة وهو قارئ واسع الاطلاع ومتحدث شائق ، وهو طبقاً لاعترافه الشخصى ليس من هواة كتابة الرسائل . ودون مونيكو عمدة قديم يحكم القرية كرب أسرة لديه مفهوم تقليدى وعملى لكرم الضيافة والسلطة . ويفكر الرحالة فى أن قضاة القرى فى الأزمان الغابرة لا بد أنّهم كانوا على نفس شاكله دون مونيكو الآن ، والرحالة لا يعرف ما إذا كانوا خيرين أم أشراراً ولكنه يتخيلهم جميعاً مستقيمين وعشاقاً وآباء لأبناء قراهم .

يريد دون مونيكو أن يرى الرحالة شيئاً من معالم القرية لكن الرحالة الذى يعتريه إحساس غامض بعيد لا يرحب بهذه الفكرة .

– لنره غداً فأنا الآن أشعر بشيء من التعب .

– لك ما شئت . لنذهب إننا لتناول فاتح للشهية .

يجلس العمدة والرحالة على مائدة أحدهما قبالة الآخر فى الكازينو الكائن فى نفس الميدان . يترك الرحالة جرابه على الأرض وينادى العمدة الساعى ويطلب منه قدحين من الفيرموت وز يتونا ويأمره أن يحمل متاع الرحالة إلى الخان وأن يقول لهم هناك بأن يعدوا فراشا لشخص واحد وعشاء لثلاثة وأن يرسل احدا فى طلب دون بكو .

تحىى جماعة تلعب الورق العمدة بإيماءة وتلقى بنظرة عابرة إلى الرحالة . لا يتأخر الفيرموت ولا الزيتون ويحضر دون بكو فى سرعة . ودون بكو رجل شاب وأنيق وعليه علائم الصحة وإيماءاته أنيقة وينزع إلى الفكر وابتسامته حيية وخفيفة وبها مسحة حزن بعيدة .

- أناديتنى ؟

- نعم ، أريد أن أقدمك . هذا صديق يقوم برحلة على قدميه فى هذه الأثناء . هذا دون فرانثيسكو كورتىخو أوسو ، نائبى .

ودون بكو طبيب ، حديثه رصين ، ونظرته مفعمة بالعمق وأراؤه هادئة صائبة .

- وكيف بدا لك المكان ؟

- لم أره بعد . أفضل أن أفعل ذلك فى الصباح ، فى ضوء النهار .

- أجل ، أنا أيضا أعتقد أن ذلك أفضل .

يتحدث دون مونيكو ودون بكو والرحالة طويلاً عن أشياء عدة ، عن كل ما عن لهم ، واحتسوا معاً عدة أقداح من الفيرموت وأكلوا زيتونا كثيراً محشوا بالقلقل . وعندما نهضوا لم يكن ثمة أحد فى الكازينو ثم عندما جلسوا إلى ما تده العشاء فى الخان لم تكن لديهم تقريباً أية رغبة فى الأكل .

★★★

فى صباح اليوم التالى وعندما أطل الرحالة على ميدان الساعة ودخل دخولاً حقيقياً وعلى عادته فى باهترانا كان أول إحساس أحسه أنه فى مدينة من العصور الوسطى ، مدينة كبيرة من مدن العصور الوسطى . وميدان الساعة ميدان مربع الشكل ومتسع ورحيب يعيث فيه الهواء . وهو أيضا ميدان طريف له ثلاث واجهات فقط ومفتوح من أحد جوانبه .

من خلال شرفة طويلة تطل على الغوطة ، على إحدى غوطتى نهر أرس . وفى ميدان الساعة قصر الدوق الذى سجت فيه وقضت نحبها أميرة إبولس^(١) . ومنظر القصر يبعث على الحسرة فما زالت واجهته قائمة تقريبا ولكنه متهدم من الداخل . وفى الحجرة التى قضيت فيها إبولى - هى زنزانة رسمت قضبانها رسماً فنياً بديعاً وتقع فى الطابق الرئيسى ، فى الجناح الأيمن للقصر- اتخذت المصلحة الوطنية للحنطة مقراً لها ، فعلى الأرض ثمة أكوام من الغلال وميزان قبان لوزن الأجولة . وبالحجرة إفريز من الفسيفساء الرائعة ، فسيفساء تاريخية شهدت وفاة الأميرة . على أن قطعاً كثيرة منها قد اختفت وسوف تختفى كل يوم قطع أخرى ما دام البغالون والفلاحون ، فى أوقات انتظارهم الطويلة لتقديم إقراراتهم المختلفة ، يقتلون الوقت بنزعها من مكانها بالسكين . فى الحجرة المجاورة ، وهى حجرة متسعة تحتل الجزء الأوسط من الواجهة ، ترى بقايا سقف خشبى عريق يهدد بالتصدع بين عشية وضحاها .

فى البهو يحملون عربية كارو تجرها البغال وينقر دجاج الأرض ويفتش عدد آخر منه فى كومة روث ، ويلعب طفلان ببعض العصى فى حين استلقى كلب فى الشمس عليه علامات السأم .

(١) أميرة إبولى (آنامدوتا) من نساء بلاط فيليبى الثانى ، تزوجت فى الثانية عشرة من عمرها من نوج يكبرها بأربعة وعشرين عاماً . فقدت إحدى عينيها فى ظروف غامضة ، حكم عليها بالسجن فى عام ١٥٧٩ لدسها الدسائس فى بلاط الملك .

ولا يعرف الرحالة إلى من آل أمر القصر اليوم .. فيقول البعض إنه ملك لأسرة الدوق ، ويقول البعض الآخر إنه آل للدولة ، ويقول ثالث إنه ملك للرهبان اليسوعيين ، ولكنه يفكر فى إنه - كائنا من كان - لا يحمل كثير ود لباسترانا أو للقصر أو للأميرة أو لأى منهم .

وفى هذا القصر أراد قس البلدة دون إوستوكيو غارثيا مرتشانتى أن يقيم متحفاً لباسترانا . وكانت ثمة مواد كافية له فضلاً عن أنه كان سيبحث عن غيرها وكان أساس المتحف يقوم على مجموعة سجاد ألفونسو الخامس ملك البرتغال الشهيرة .

ولم تلق فكرة دون إوستوكيو الترحيب الذى كانت تستحقه ولم ينجح المشروع وبقيت باسترانا بلا متحف وهى فى طريقها الآن إلى أن تبقى بلا قصر . وشهدت كيف طارت منها السجاجيد الموجودة الآن فى مدريد . ولقد سجل دون إوستوكيو محاولته تلك فى كتاب عنوانه : «سجاد ألفونسو الخامس ملك البرتغال المحفوظة فى كنيسة باسترانا القديمة» مصلحة طبوغرافيا دار النشر الكاثوليكية بطليطلة ، شارع خوان لابرادور رقم ٦ ، ١٩٢٩ .

وكما قلت فالسجاد الآن ليس موجوداً فى كنيسة باسترانا القديمة ويطلب أهل باسترانا كل يوم يعودته ولكن أصواتهم تذهب أندراج الرياح . وحجتهم فى ذلك قاطعة - أعيدو لنا ما هو لنا - ولكن يرد عليهم بأن باسترانا ليس بها مكان مناسب لاقتنائه ، وأنه كان فى طريقه إلى الضياع داخل المتحف الذى كانت تعرض فيه .

ويفكر الرحالة فى أن هذه قضية لم يدعه أحد للتخاصم فيها ، بيد أنه يفكر أيضاً فى أن إبداع أى شئ ذى قيمة متاحف مدريد من شأنه أن يقتل المقاطعة التى هى فى نهاية الأمر إسبانيا أيضاً ، وإن الأشياء تكون دائماً

على نحو أفضل إذا ما كانت على شئ من الفوضى أو على غير ما نظام ، لأن نظام المتاحف الإدارى البارذ شفافته شأن نظام القوائم والإحصاءات والمقابر إنما هو نظام غير إنسانى وغير طبيعى ، وهو فى النهاية ليس نظاما .. اما النظام الحقيقى فهو نظام الطبيعة الذى لم يخرج شجرتين أو جبليين أو جوادين متماثلين أبداً. ونقل السجاد من باسترانا كان خاطئا من ناحية أخرى أيضا .. فإن يعثر الإنسان على الأشياء مصادفة لهو أشد بهجة من أن يذهب إليها قاصدا ودون أدنى احتمال للخطأ . ما علينا ...

الخروج من ميدان الساعة من خلال بوابتين . تؤدى البوابة اليسرى - فى عكس اتجاه القصر - إلى حى الباييسين (Albacin) العريبى الأصل ، والبوابة اليمنى إلى حى سان فرانشيسكو المسيحى . يخرج الرحالة ليستطلع المدينة ويسلك شوارع لها أسماء قديمة وقرشت بالحصى ، ويسير أمام المنازل ذات الأبواب المزينة بالحديد الغليظ والشرقات المتوجة بأصص الغرنوق والقرنفل والهلجون والحبق .

وأسماء شوارع باسترانا جميلة ومحملة بالإيحاءات : شارع السيدات وشارع الثور وشارع المداخن وشارع سانت ماريا وشارع التل وشارع الجدول وشارع التين وشارع البطل الصغير وشارع موراتين .

وكان موراتين ^(١) قد كتب مسرحيته «إذا البنات قلن نعم» (ترجمة حرة للأصل : El sí de las niñas - المترجم) فى باسترانا وعقد فيها قرانه الثانى . وكان يمكن الاحتفاظ بشئ من منزله هناك .

يعثر الرحالة فى باحة «القصبات الأربع» على نافورة رشيقة على شكل سدح غطيت بخزف تشقق بفعل السنين ، وتنتهى على شكل بيدق شطرنج ولا يخرج ماء من النافورة ونبتت الحشائش الضارة فى شقوق

(١) لياندرى فرناندث دى موراتين (١٧٦٠ - ١٨٢٨) : كاتب مسرحى إسبانى شهير .

الخرزف . يأمر العمدة بفتح صنابير مياه النافورة حتى يتسنى استخراج صورة فوتوغرافية لها فيبحث خفير عن قضيب من الحديد ينظف به أنابيب المياه المسدودة .

وتتحين بعض النسوة الفرصة ليملأن جرارهن وأباريقهن.

يزين رواق كنيسة عذراء الانتقال إكليل من زهور الشاي . يتم العثور على سادن الكنيسة بعد كثير بحث وتقص . ويطوف السادن والرحالة بالكنيسة التي لا بد أن كان لها شأن في يوم ما . وسادن الكنيسة مثقف ويشرح للرحالة أشياء عدة ينساها في الحال . دفن في الكنيسة الزاهد خوان دي بويانيدا إى بوين كوتشيو (يوحنا الحياة الطيبة والسكين الطيب) الذى لا بد أن كان شخصية طريفة ، والذى يقال إن الكنيسة ستعترف به قديساً رسمياً . ويفكر الرحالة فى أن الزاهد كان يستخدم لنفسه اسماً مرعباً كأسماء الحكايات الشعبية التى يرويها الشعراء المكفوفون ، وأن هذا الاسم هو أحرى بقاطع طريق أو بشخص حكم عليه بالإعدام منه برجل قد يصبح قديساً .

وتنضح الكنيسة بالتاريخ وتكتظ بذكرى أمجاد تليدة ، بيد أن الرحالة يرى أن أجمل ما فيها هو الرواق وإكليل زهور الشاي . فى وقت ما كان بها كورال قوامه ما يربو على أربعين قساً واليوم أصبح خاوياً بلا رجل واحد .. لعل أحداً منهم لم يستطع أن يداوم على حياة العبادة ، من يدري ؟ وتذكره باسترانا بطليطلة وأحياناً بسانتياغو دي كومبو ستيلا . فبينها وبين طليطلة نقاط التقاط حقيقية وجليية : الشوارع الضيقة ومدخل المنازل ونواصى الشوارع ولون الواجهات وبعض السحب . أما ما بينها وبين سانتياغو فهو تشابه غامض فى الإحساس . ولا يعرف الرحالة كيف يشرح ذلك على نحو آخر .

وباسترانا المدينة التي كانت لها تقاليد عريقة خلّت الآن من رجال الدين. ويقال إن مجمعها الكنسي لم يكن له نظير إلا في طليطلة وأن دير رهبان الكرمل هناك أنشأته سانتا تيريسا وكان من بين من نزلوه سان خوان دي لاكروث .

والآن اندثر المجمع ولم تعد للدير أهمية .

ويرى الدير من ميدان الساعة ، على مرتفع عند ملتقى غوطى نهر ارس . يهبط الرحالة وصديقه ناحية طريق السيارات ثم يسلكون من هناك شعبا يوصلهم إلى الجانب الآخر من الدير . لا بد من ارتقاء هضبة وعرة ، فيجلس ثلاثتهم لالتقاط أنفاسهم عند باب منزل كان قديماً مصنوعاً للورق وتحت ظل شجرة جوز عتيقة .

على بعد خطوات جلس متسول غريب الهيئة يتفلى في الشمس وما إن يرى الرجال الثلاثة حتى يهرع إليهم طالباً حسنة . يلبس طاقية حولها الدهر إلى طاقية بحافة وسترة وسراويل على اللحم الخشن الذي لوحته الشمس . ويبدو العم رمولينوس بسترته المفتوحة وصدرة العارى كمحارب قديم أدارت له الأيام ظهرها ، كقبطان مهزوم لم يعد يعتقد في شيء ولا ينتظر شيئاً ولا يأبه بأى شيء حتى بالبرد . ويمضى متسخاً وقد طالحت لحيته ، بيد أن مظهره ينم عن سخرية نبيلة وشكّية . والعم رمولينوس متسول على النسق القديم فهو متحل بالوقار والصبر الجميل ، وهو شحاذ يعرف دوره جيداً : فلم يفتم ولم يعمل في حياته ولم يعبس لها قط .

للوصول إلى دير الكرمل يجب صعود منحدر مود إلى كنيسة سان بدور دي الكانترا . أسفلها يقبع كهف سان خوان دي لاكروث وعلى اليمين ، على شكل مقدمة سفين كنيسة سانتاتيريسا . وكل هذه

الأماكن تشكل جواً أدبياً معيناً وهي مزينة برفات الموتى وبعقارب ساعة الزمن وبنقوش تشير إلى قصر العمر وإلى الحياة الآخرة التي تنتظرنا . والحقيقة إن زيارة هذه الأماكن قد لا يكون لها ما اصطلاح على تسميته بالأثر العلاجي في أشخاص عصبيين أو موسوسين .

ويبدو كهف سان خوان شبه متصدع وقد غطت الحشائش الضارة مدخله . وإعادته سيرته الأولى أيام كان القديس يتردد عليه هي مهمة تنجز بعرقين من الخشب ، كما أن الحشائش الضارة من الممكن أن تأتي عليها النار في نصف ساعة .

يبعد الدير عن الكنيستين مسافة مائة خطوة أو أقل من ذلك وهو الآن ينتمي إلى الرهبان الفرانثيسكان . ويرافق الرحالة وصديقيه راهب صحيح البدن تبدو عليه إمارات العافية ويدخن سيجارة طويلة . يتحدث إليه الرحالة الذي له تاريخ عائلي متواضع متصل بهذه الرهبانية .

- لى جد أو والد جد كان راهباً فرانثيسكانياً عذبه الكفار في دمشق وهو قديس رسمي منذ أعوام طويلة .

- ما اسمه ؟

- فرأى خوان خاكويو فرناندث .

- لا أعرفه .

لا يبدو أن الراهب اهتم كثيراً بجد الرحالة القديس .

- والآن يتحتم علينا أن نضع قرميذاً جديداً . خلال عام إن شاء الله سنقوم بترميم بهو الأعمدة في حدود إمكانياتنا .

يطوف الراهب والرحالة وصديقه بالدير إلى أن يصلوا المكتبة .

- لدينا هنا أربعة أو خمسة كتب طبعت قبل ١٥٠٠م ، وللحيلولة دون فسادهما قمنا بتجليدهما .

ويريها الراهب للرحالة وقد اقتصت مقصلة من المجلد مقدار عرض إصبع من كل ناحية .

- ولدينا أيضا متحف للتاريخ الطبيعي ستراه فيما بعد وهو الآن غير مرتب فعندما نخل «الحرر» البلدة قلبوا كل شيء رأساً على عقب .

كانت قد مضت سبع سنوات منذ أن انتهت الحرب الأهلية .

ويدخل الراكب أحد الفصول في طريقه إلى متحف التاريخ الطبيعي فيقف الطلبة الذين وجد الرحالة في ملاحظتهم ضرباً من الطرافة فقد تباينت أعمارهم وأشكالهم وألوان شعرهم .

- هنا ، أكثر الحيوانات لدينا من الجزر الفلبينية .

كل شيء في المتحف تسوده الفوضى ويغطيه التراب وهو شيء محزن ولكن ربما أمكن علاجه بتعيين خبير يعيد الأشياء موضعها الأول ويتعيين خادمة في يدها مقشة .

ويتحدث الراهب عن أحزان الدير في شيء من عدم الاهتمام ، ويذا كأنه لا يدرك حقيقة أن تلك الأحزان هي أحزان فعلية ، والأسوأ من ذلك هو أنها أحزان يمكن أن تنتهى بقليل من التدبير .

والدير بديع ومشعب بالتقاليد ويفكر الرحالة في أنه من المؤسف إلا يستطيع الدير - شأنه في ذلك شأن باسترانا - أن يرقع هامته ثانية .

في كتاب دون إوستوكيو المنثور نثرنا نحوياً رائعاً ثمة نبرة أسى على

الأمجاد التليدة وإعظام للأزمان الغابرة ، تلك الأزمان التي يرى دون إيستوكيو أنها كانت أفضل من الحاضر رغم كل شيء.

«باسترانا فى الوقت الحاضر مدينة خبت جذوة مجدها. أجل ، فلم يعد يسمع صرير بوابات قلعتها التي كان يحرسها فى الأزمان التليدة برج المراقبة فى ممرات القصر العليا ولم تعد رؤية الجنود فى زيهم العسكرى البديع تلهب الروح القتالية وتحولها أناشيد عسكرية كما كان يحدث فى العصور الوسطى» .

يعتقد الرحالة أن دون إيستوكيو قد أسرف فباسترانا بدون برج مراقبة وبدون أناشيد عسكرية وبدون روح قتالية ، وبدون عصور وسطى هى مدينة ككل المدن وجميلة كالقليل منها وأنها تعلو وتنخفض وتنمو وتتقلص حسبما تضحك لها أو تعبس فى وجهها المقادير .

ربما وجد فى باسترانا تفسير لظاهرة تتكرر فى إسبانيا كلها فى غير ضرورة : إن التراث الجيد يشق على الأنفس ويذبل الإرادة ولكن بدون إرادة وبالانتصار على تأمل أمجاد الماضى لا يمكن أن نتفهم مشاكل الحاضر . إذا ما خوت البطون وعششت فى الرؤوس الذكريات الذهبية ابتعدت هذه الذكريات شيئاً فشيئاً ، وفى النهاية ودون أن يعترف بذلك أحد يسود الشك فى حقيقة هذا الماضى ويتحول إلى قيم ممجوجة مهمة داعية الشفقة .

ثمة من يقول إن لوحة فيلاثكث «الغازلات» تمثل منوالاً من باسترانا - ربما كان هذا صحيحاً ، ولكن الرحالة يفكر فى أنه لو أن باسترانا احتفظت بهذا المنوال لكان ذلك أفضل من أن يحتفظ به فى لوحة عظيمة ليست هى الأخرى موجودة فى باسترانا .

فى مواجهة الدير ، فى مرتفع لاكويستانى بالديانغيكس (Cuesta de

(Valdeanguix ، توجد كهوف المورو (El Moro) طويلة وعميقة يبلغ عمق بعضها ستين متراً . والرحالة لا يصعد المرتفع ولا يهبط الكهوف فباستراتانا مدينة كبيرة ومن الصعب زيارتها على الأقدام فى يوم واحد ، كما أن الرحالة لا يجد فى نفسه أية رغبة فى أن يخطو خطوة أخرى واحدة .

وعندما يعود إلى النزل ينشر الخريطة على مائدة حجرة الطعام الكبيرة كأنها مائدة اجتماعات ممعناً فى الفكر . ناحية الجنوب ، وعند منعطف لنهر التاجه تقع ثوريتا دى لوس كانس (Zorita de los Canes) التى حكمها البار فانيث (١) .

كان دون مورنيكو قد خرج ، ودون بكو يطل من الشرفة ينظر إلى الغوطة . ينهض الرحالة ويشرب جرعة كونيكا ويشعل سيجارة ثم يطل من الشرفة هو أيضا على الميدان الذى يتأرجح فيه هواء شفاف ومكدود قليلاً . ينظر ناحية اليمين إلى واجهة القصر القائم بمحاذاة النزل ويرى فى متناول اليد تقريباً القضبان التى حرسست أميرة إبولس . ويقشعر بدن الرحالة - فهو أيضا إسباني كأى باسترانى - عندما يفكر فى أن على الجانب الآخر من الحائط عاشت ساعاتها البائسة وقضت نحبها تلك السيدة الغامضة الحسناء والحولاء والشبكة فيما يبدو، التى بلغ نفوذها شأواً بعيداً وحيرت العظماء . والناس فى باسترانا يسمونها فى وقاحة : القحبة . فشعب قشتالة شعب نظامى وعرفى ، وثمة شيئان لا يتسامح فيهما ولو على سبيل الخطأ : أن يعبث الأغنياء بقانون الله ومتعة تسمية الأشياء دائماً بأسمائها .

- هل اعجبك المدينة ؟

(١) من شخصيات ملحمة «السيد» .

- جدا . باسترانا مدينة عظيمة وإن كانت نائمة قليلاً .
يبتسم دون بكو غارقاً فى التفكير ويصمت برهة ثم يلتفت إلى
الرحالة .

- مازالت لدينا ثلاث ساعات من النهار . هل تريد أن أخرج السيارة
ونذهب إلى ثورثيا ؟

- أجل أريد بالطبع .

الرحلة إلى ثوريتا قصيرة وممتعة .

يبدو السفر المريح والسريع الآن للرحالة شيئاً غير مألوف ، فقد اعتاد
أن يقيس المسافات على الخريطة بعدد ساعات السير ، والطريق حتى
ثورثيا طبقاً لهذا القياس كان سيكلفه يوماً بأكمله سيراً على ضفاف نهر
أرلس حتى مصبه فى نهر التاجه ودون أن يعثر بأية قرية .

يمر التاجه بثوريتا

كالسلطان

والريف أنسة

تقدم الخبز

وترتدى السماء سترة

أو معطفاً

وليس ثمة قانون

جاذبية فلكى

وقلعة ثوريتا

لم تدق أجراسها

يسكنها عفريت ..

انتهى البيت السادس .

تقع ثوريتا دى لوس كانس فى أحد منحنيات نهر التاجه ، إلى جانب
أعمدة لجسر لم يشيد قط ، وتحيط بها حقول القنب وتستلقى فى ظل
أطلال قصر ينتمى إلى رهبانية كالاترابا . لم يعد قائما من القلعة إلا
بعض الأسوار وقوسان أو ثلاثة وزوج من القباب وهو يمثل موقعا
استراتيجيا على ربوة صخرية وعرة . على الجانب الخلفى من سفح
الربوة يحرس راعيان قطيعاً من الماعز ويحفر أحدهما عصا من المران
بحافة سكينه بينما يجلس الآخر على العشب الأخضر محاولاً أن يخرج
صغيراً من ناي من البوص .

ويبدو أن القصر كان قلعة حصينة ، بيد أن الأقواس والقباب تبدو الآن
وقد تصدعت وتهدد بالسقوط فى أحد هذه الأيام .

وأهل ثوريتا لطاف وأذكياء وحسب ما يقوله دون بكو للرحالة فإن
التطعيم فى هذه القرية لا يعتبر مشكلة : فيقال لهم إنهم سوف يطعمون
وتشرح لهم فوائد التطعيم وأخطار إهماله ويحدد موعد إجرائه وعندما
يأتى هذا اليوم يقبل الناس عليه ، وفى وجود الطبيب وممارس صحى
وأحد يتم تطعيم القرية كلها بين صباح ومساء يوم واحد .

وأهل ثوريتا دى لوس كانس من سلالة شقراء كالألمان أو الإنجليز .
شعورهم شقراء وعيونهم زرقاء وهم طويلو القامة معتدلوها . والفتيات
يفرقن شعورهن ويضفرنهن فى ضفيرتين وهن يميزن نظيفات
مشرقات وقد تورد لون خدودهن على البشرة البيضاء .

وثوريتا قرية تحيا حياة عائلية وتعيش فى سلام وفى نعمة ريبانية .
فى مواجهة ثوريتا - على الجانب الآخر من النهر - ترى أطلال مدينة
ركوبوليس القوطية (Récepolis) وفى عكس الاتجاه ، فوق طريق السيارات
المؤدى إلى البلاتى (Albalate) ، تلوح من بعيد المونائيد دى ثورثيا

(Almonaud de zurita) ، القرية التي كان يعمل صيدلياً بها الشاعر ليون فيليبس منذ أكثر من ربع قرن .

يخرج دون بكو والرحالة من ثوريتا وقت حلول الظلام تقريبا وكانا قد تناولا شيئا من طعام فى حانة لم يرد أصحابها أن يأخذوا إلا ثمن النبيذ - لأن الطعام لم يكلفهم شيئا - وتسليا بالحديث إلى الناس .

فى طريق العودة يفكر الرحالة الجالس إلى جوار دون بكو فى أن رحلته فى «القرية» قد انتهت . تسبب له هذه الفكرة سعادة من ناحية وحرزناً من ناحية أخرى . لقد تعلم أشياء كثيرة ، ولا شك فى أن ثمة أشياء أخرى كثيرة لم يتعلمها . ولقد سار حيث أراد ورجع عن السير حين لم يرد ..

تسبب أرجحة السيارة النعاس ، فينعس مرتين ويميل رأسه على كتف دون بكو الطبيب والرجل الذى يبتسم دائما ابتسامة خفية وبها مسحة حزن بعيدة .

يستيقظ الرحالة عند الوصول إلى ميدان الساعة .

- هل نمت قليلاً ؟

- أجل يا سيدى واعذرني إنا كنت قد توسدت كتفك .

فى الميدان يتحدث الرجال مجتمعين وتتنزه الفتيات وقد أحطن بأفراد من الحرس المدنى يلبسون بيريهاث الثكنات وهم أفراد من الشباب يغازلونهن ويخطبون ودهن . يمارس صبية اللعب فى احد الأركان وفى الركن المقابل تلعب صبيات «الحجلة» يعبر الميدان رجل من الأثرياء يرتدى بذلة وتضحك فتاة هيفاء بادية الحسن تنتعل حذاء صغيراً رقيقاً كعبه عال .

ويرخى الليل سدوله من فوق جبل الكالبا ريو على باسترانا .

فى ميدان الساعة

تغيب الشمس

وتتعبد امرأة تتشح

بالمسواد إلى الرب

ويدق ناقوس دقاً حزيناً

بحب واهن

وفى فضاء باسترانا

يلحق طائر الباشق

تضاء الأنوار الكهربائية شيئاً فشيئاً ويطلق مكبر صوت فى أحد
البارات إيقاع «البوغى بوغى» ضد الحجارة العتيقة .

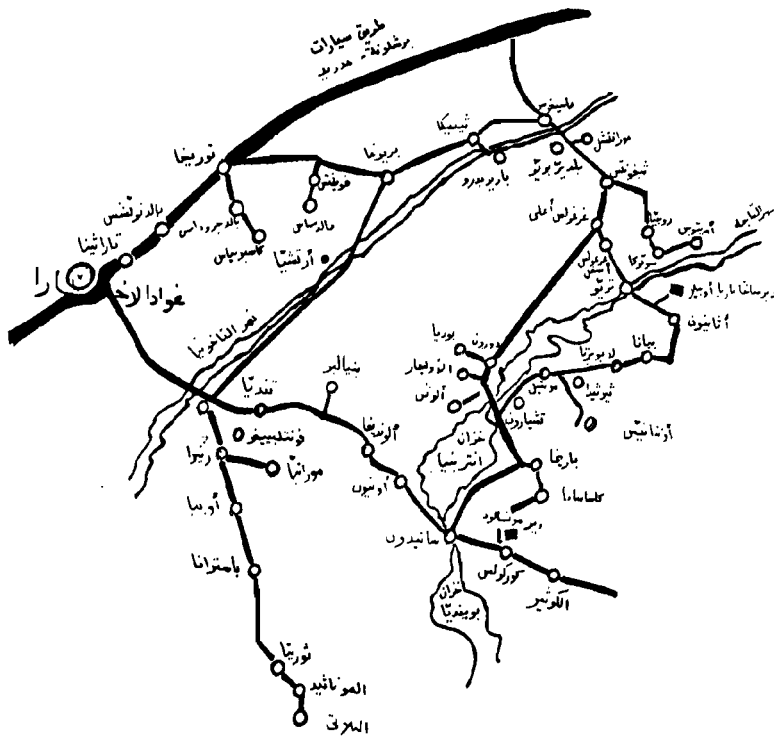
يدخل دون مونيكو ودون بكو والرحالة الكازينو لتناول الفيرموت
والزيتون المحشو بالأنشوجة ...

فى الطريق : من ٦ إلى ١٥ يونية ١٩٤٦

فى مدريد : ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ يونية ١٩٤٦ .

ومن ٢٥ إلى ٣١ ديسمبر ١٩٤٧ .

★★★



منطقة الرحلة



خريطة زرنجان

الفهرس

الصفحة	
٥	إهداء
٧	مقدمة
١٧	أعمال كاميلو خوسيه ثيلا
٢٥	١ - قبل الرحلة بأيام قليلة
٣٣	٢ - طريق وادي الحجارة
٥٥	٣ - من نهر الإينارس إلي نهر التاخوسا
٧٩	٤ - بريويغا
١٠٥	٥ - من نهر التاخونيا إلي نهر الثيفونتس
١٢٧	٦ - مع نهر الثيفونتس حتي نهر التاجه
١٤٩	٧ - من نهر التاجه إلي جدول العزلة
١٧٣	٨ - من جدول العزلة إلي جدول إنبولبيدا
١٩٣	٩ - كاساسانا - كوركولس - سائيدون
٢٢٣	١٠ - رحلة في حافلة
٢٣٧	١١ - باسترانا
٢٥٩	للمترجم